مقـالات ٢٠١٩

نشرت في جريدة الأهرام المصرية

أ.د. محمد الخشت

أستاذ فلسفة الدين ورئيس جامعة االقاهرة

www.elkhosht.com

الفهرس

أبريل ٢٠١٩

تطوير العقل...تشخيص الداء ---------- ٢٨ ابريل ٢٠١٩

مايو ٢٠١٩

تطوير العقل المصري سر التحول لعصر جديد ---------- ٦ مايو ٢٠١٩

نحو ميلاد عقل مصري جديد ---------- ١٢ مايو ٢٠١٩

العقل المصري الجمعي : أفكار قديمة في ثوب جديد! ---------- ١٩ مايو ٢٠١٩

متى يتجاوز العقل المصرى منابر الثرثرة؟ ---------- ٢٦ مايو ٢٠١٩

يونيو ٢٠١٩

الوعى على أجندة الإصلاح ---------- ٢ يونيو ٢٠١٩

هل يمكن فك أكواد الوعى المصرى؟ ---------- ٩ يونيو ٢٠١٩

محاور تطوير العقل المصري (١-٣) ---------- ١٦ يونيو ٢٠١٩

محاور تطوير العقل المصري (٢- ٣) ---------- ٢٣ يونيو ٢٠١٩

محاور تطوير العقل المصري (٣/ ٣) ---------- ٣٠ يونيو ٢٠١٩

يوليو ٢٠١٩

تطوير العقل المعرفي المصري ---------- ٧ يوليو ٢٠١٩

تطوير العقل الديني ---------- ١٤ يوليو ٢٠١٩

للتجديد دائرة معرفية أخرى ---------- ٢١ يوليو ٢٠١٩

الفن والعقلانية والواقع الممكن ---------- ٢٨ يوليو ٢٠١٩

أغسطس ٢٠١٩

الفن وتحرير الوجدان المصري ---------- ٤ أغسطس ٢٠١٩

الفن والعقل الديني ومعارك الكراهية ---------- ١٣ أغسطس ٢٠١٩

الفن: من تطهير الوجدان إلى تطهير الواقع ---------- ١٩ أغسطس ٢٠١٩

إصلاح الغرائز (١) ---------- ٢٥ أغسطس ٢٠١٩

سبتمبر ٢٠١٩

إصلاح الغرائز (٢) ١ سبتمبر ٢٠١٩
إصلاح الغرائز (٣) ٨ سبتمبر ٢٠١٩
إصلاح الغرائز (٤) ١٥ سبتمبر ٢٠١٩
إصلاح الغرائز (٥) ٢٢ سبتمبر ٢٠١٩
القواعد السبع لتحقيق الذات ٢٩ سبتمبر ٢٠١٩

أكتوبر ٢٠١٩

حرب أكتوبر وتغيير طرق التفكير ٦ أكتوبر ٢٠١٩
حرب أكتوبر والطريق إلى تغيير نمط الإنتاج ١٣ أكتوبر ٢٠١٩
الحرب النفسية في حرب أكتوبر ٢٠ أكتوبر ٢٠١٩
حرب أكتوبر والخداع الاستراتيجي ٢٧ أكتوبر ٢٠١٩

نوفمبر ٢٠١٩

اعرف نفسك ٣ نوفمبر ٢٠١٩
من عرف نفسه فقد عرف ربه! ١٠ نوفمبر ٢٠١٩
من النفس الميتافزيقية إلى النفس العاملة في العالم ١٧ نوفمبر ٢٠١٩
هل يمكن أن ننقل اللغة العربية نحو الحاضر؟ ٢٤ نوفمبر ٢٠١٩

ديسمبر ٢٠١٩

هل يمكن تطوير العقل بدون تطوير اللغة؟ ١ ديسمبر ٢٠١٩
متى نصنع نسختنا الجديدة من اللغة العربية؟ ٨ ديسمبر ٢٠١٩
فشل كل المحاولات المعاصرة لتطوير اللغة العربية ١٥ ديسمبر ٢٠١٩
مبادرة جامعة القاهرة لتطوير اللغة العربية ٢٢ ديسمبر ٢٠١٩
لماذا تفشل دعوات التسامح؟ ٢٩ ديسمبر ٢٠١٩

تطوير العقل...تشخيص الداء

٢٨ ابريل ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

على الرغم من أن النهضة المصرية الحديثة بدأت منذ أكثر من قرنين، فإن مصر لم تدخل عصر الحداثة بعد، ولم تصبح عضوا في مصاف الدول الكبرى على مستوى العالم، وسبقتنا دول كثيرة بدأت بعدنا مثل اليابان والصين وماليزيا.

تلك حقيقة مرة يجب أن نتقبلها جميعا بصدر رحب؛ فعبر قرنين كاملين من الزمان، جربنا كل الحلول، مثل الاشتراكية والرأسمالية والنظام المختلط، ومارسنا الليبرالية، كما عشنا الأصولية وغيرها من الأنظمة والأيديولوجيات. وفي كل مرة لا نستطيع صناعة نهضة حقيقية، كما لم نستطع إحداث تنمية شاملة.

والسؤال: لماذا يحدث دوما الإخفاق؟

أتصور أنه كانت لدينا في كل محاولة سابقة للنهضة مشكلة جوهرية هي: (عدم تغيير طريقتنا في التفكير). وعلى سبيل المثال مشروع محمد علي العظيم، الذي لو تم إلى منتهاه وبطريقة سليمة، لصارت مصر دولة عظمى. لكن هذا لم يحدث؛ لأسباب كثيرة، من أهمها أنه لم يحدث لدينا تغيير في طرق التفكير، حتى عند النخبة التي اقتبست أفكار الغرب، لكنها لم تقتبس طريقته في التفكير، مثل عامة الناس التي تستورد التكنولوجيا وتستهلكها، لكنها لا تنتج التكنولوجيا.

فما الفرق بين نخبة تستورد الأفكار، ولكنها لا تنتج الأفكار، وعامة الناس التي تستورد التكنولوجيا ولكنها لا تنتجها؟!

لقد جربنا الرأسمالية والاشتراكية والنظام المختلط والأصولية والليبرالية، جربنا كل هذه الأنظمة وغيرها، ولم ينجح أي منها؛ لأن طريقة التفكير التقليدية التي ألفها الناس واعتادوا التفكير طبقا لها، بقيت كما هي في كل مرة على عوارها وعلاتها، وبالتالي لم تحدث نهضة حقيقية في الماضي.

إن العقل المصري لا يزال يفكر بالطريقة القديمة نفسها، حتى مع المتعلمين الحاصلين على شهادات جامعية؛ لأنهم يتعلمون المعلومات ولا يتعلمون طرق التفكير. ومن هنا يجب العمل على تطوير العقل أولا وقبل كل شيء.

ولكي أوضح فكرتي أكثر، أقول عندما أتحدث عن تطوير العقل، فإنني أعني بالأساس تطوير طرق التفكير، وهي بالطبع شيء مغاير تمامًا عن تحصيل الأفكار والمعلومات والحفظ والاسترجاع؛ فطريقة التفكير مثل الطريق، أو المنهج، والمنهج عبارة عن الإجراءات التي تتبعها في تفكيرك وخطوات الاستدلال التي تسير عليها، ففي عملية الاستدلال توجد خطوات، حيث تسلمك الخطوة للخطوة التالية، فمن الممكن أن تعرض الفكرة الإيجابية على شخص يفكر بطريقة سليمة، وتعرض الفكرة الإيجابية نفسها في الوقت ذاته على إرهابي من داعش، فهل سوف يتعامل الاثنان بالطريقة العقلية نفسها مع الفكرة ذاتها؟ بطبيعة الحال لا.

فالفكرة الإيجابية التي يستقبلها صاحب طريقة التفكير السليمة سوف تجعله يصل إلى نتائج وأفكار تنمية، وتطور، ومشاركة اجتماعية، وروح الفريق الواحد...إلخ. بينما الفكرة الإيجابية التي يستقبلها الداعشي صاحب طريقة التفكير الخاطئة ، سوف يترجمها العقل الداعشي بطريقة باطلة، وسوف يصل لنتائج مختلفة وأفكار دموية، وحرق، وقتل، أي أنه من الممكن أن تكون محطة البث واحدة وقوية وإيجابية ويبقى الخطر كامنًا في كنه من يستقبل هذه الأفكار، وطريقة تفكيره إزاءها!

فطريقة استقبال العقل للأفكار وترجمتها بالاستنتاج والاستدلال، هي المحك وهي الفاصل في النتائج وطبيعتها. ويمكن أن نقول بتعبير آخر إن ثقافة التعلم تلعب دورا رئيسا في ترجمة المعلومات. ونحن في مصر حتى الآن تسيطر علينا ثقافة تعلم تجهض أية عملية نهوض للتعليم؛ والمحصلة تخريج كتائب من الحفظة وليس من العلماء!. فمن الممكن أن تكون لديك المياه والبذور الصالحة، ولكن الأرض جدباء، والتربة غير صالحة للزراعة، وبالتالي لن تنتج لك شيئًا. ولكن إذا استخدمت تلك المياه والبذور في أرض أخرى خصبة فإنها ستنمو وتثمر.

فالحل الأول هو أن نصلح التربة، ونحول الأرض الجدباء لأرض خصبة صالحة للزراعة؛ ولذلك نحتاج إلى تغيير طرق التفكير. وسوف تنعكس طرق التفكير تلقائيًا على الاقتصاد بشكل مباشر.

إذن نحن بحاجة لتغيير ماكينة التفكير، ولكي نغير ماكينة التفكير، فلا بد أن نغير المناهج وطرق الامتحانات وطرق الشرح، وأدلل على ذلك بأننا في مصر جربنا أفكارًا كثيرة جدًا منذ أيام محمد علي بل منذ عصر الفراعنة، ولا يتحدث أحد عن أية نهضة شهدها المجتمع المصري بعد عصر الفراعنة. وليس من الصواب الرد على ذلك بحجة الكثيرين الذائعة والتي تبكي الدموع على مصر في النصف الأول من القرن العشرين، بوصفها الزمن الجميل وعصر عصور التقدم والرقي!

فلا بد أن نكون صادقين مع أنفسنا إن أردنا التشخيص السليم والعلاج الناجع، ولا نظن أن مصر قبل في ذلك الوقت كانت أحسن حالًا من مصر بعد ذلك، فقد كانت مصر فقيرة والناس كادة كادحة، وليست مصر أيام الملكية هي صورة حي المنتزه أو شارع عماد الدين وفندق الكونتيننتال القديم مع تمثال إبراهيم باشا، وأم كلثوم وعبد الوهاب. بل كان هذا جزءًا محدودًا من مصر، أما معظم مصر فقد كان يرضخ تحت نير العوز ووطأة المعاناة والجهل، وكان الناس يفكرون بالطرق العتيقة نفسها.

إن مصر الراهنة تسعى للتحول إلى دولة الرفاه الاجتماعي، ولكي تتحول إلى دولة الرفاه الاجتماعي، فإنها تحتاج إلى تنمية في كافة المجالات الزراعية والصناعية والتجارية، ولكن هل يمكن أن يتم هذا بمعزل عن إعادة بناء الإنسان وتطوير العقل وتغيير طرق التفكير؟.

إجابتي القاطعة: لا.

تطوير العقل المصري سر التحول لعصر جديد

٦ مايو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لعل من كبرى مشكلاتنا أننا لا نقرأ التاريخ قراءة فلسفية كلية، ونكتفى ببعض الأجزاء المقتطعة من سياقها ونقف عندها ونستعيدها ونتغنى بها ونضعها كهدف مثالى لنا ونعمل على أن نعيش طبقا لها. مع أن هذا غير ممكن؛ لأن الزمان غير الزمان والمكان غير المكان، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مختلفة تماما.

ولهذا فشلت كل النزعات الماضوية. وطريقة تفكير العقل الجمعى فى مصر لا تزال ماضوية، تريد بناء المستقبل كنسخة للحظة تاريخية سابقة، متجاهلة سنن التاريخ وسنن التقدم.

وفى تصورى أن التعامل مع التاريخ تعاملا تجزيئيا يعد من أكبر الثغرات فى طريقتنا فى التفكير، وأيضا من أكبر الإخفاقات فى نظامنا التعليمى أنه يتعامل مع التاريخ بوصفه تاريخ الحروب والصراعات فقط، ويتجاهل تاريخ الحضارة والفن والعلم والفلسفة.

ولا يقف الأمر إذا أردنا تطوير العقل الجمعى المصرى، عند وجوب النظر إلى التاريخ نظرة كلية، بل يتجاوز ذلك إلى محاولة معرفة سنن التاريخ وقوانينه وفلسفته، حتى نعرف سر التحولات الكبرى، ونتعلم من أخطائه ونجاحاته، ونتعلم من المنطق الذى يحكمه.

ومن أسف أننا فى كل المشاريع الفكرية العربية فى العصور الحديثة، لم نحاول التوقف لمعرفة سر الانتقال من عصر إلى عصر عبر التاريخ.

ومن وجهة نظرى أن سر التحول يكمن فى تغيير طريقة التفكير. فإذا تغيرت طريقة التفكير تغير كل شيء، لأن قواعد التفكير هى النظام الذى يحكم عمل الأفكار، وطريقة التفكير هى التى تنتج الأفكار أو تهيئ لاستقبالها، والأفكار تتحول إلى سلوكيات.

لذلك، فإن الفكر الداخلى هو أساس السلوك، وهو الجوهر الذى يتجلى فى الواقع المعاش. وإذا قلت لى كيف تعيش؛ فسوف أقول لك كيف تفكر. فنمط الحياة نفسه هو نتاج طريقة التفكير، ونوعية الأفكار تؤثر على نوعية الحياة بما فيها العادات والتقاليد وعلاقة الناس ببعضهم البعض وعلاقتهم بالدولة والعالم. ولن تنجح أى دولة دون الناس، ولن ينجح أى مشروع للتنمية الشاملة دون أن يتغير الناس أنفسهم، ولن يتغير الناس دون أن تتغير طريقتهم فى التفكير. وبالتالى لن يتم إصلاح الخطاب الدينى أو تأسيس خطاب دينى جديد دون تطوير طريقة التفكير، ولن تتحقق تنمية اقتصادية دون تطوير العقل المصرى، وتغيير طريقة عمله؛ لأنها كلها أمور مرتبطة ببعضها فى بنية العقل، ولأن المنهج الذى يحكم كل هذا فى النهاية كامن فى تكوين العقل البشرى وآلية عمله.

وهنا يكمن سر التحولات الكبرى عبر عصور التاريخ، وهنا تكمن الإجابة على السؤال الرئيس: كيف يتم افتتاح عصر جديد؟

وربما تختلف النظريات فى تحديد مفارق الطرق فى التاريخ الإنسانى، لكن ربما لا نختلف أن ثمة تغييرا كبيرا حدث مع مجموعة من الأنبياء والفلاسفة والعلماء وقادة الإصلاح السياسى، مثل: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد؛ عليهم السلام؛ وبوذا وكونفوشيوس ومارتن لوثر وسقراط وفرانسيس بيكون وديكارت وجون لوك وجان جاك روسو وكنط وآدم سميث ولينين وغاندى ودنغ شياوبنغ، وغيرهم مما يضيق عنهم مقال واحد.

وإذا نظرنا فى حقيقة عمل كل شخصية من هؤلاء وإنجازها فى عملية التحول لعصر جديد، سوف نجد أنها قد استطاعت تغيير طريقة التفكير فى عصرها، وبالتالى تغيير رؤية العالم، ومن ثم تغيير العقل الجمعى ونمط سلوكياته، وهو ما يؤدى بشكل مباشر للانعكاس على عملية التحول نحو عصر جديد.

وعلى سبيل المثال، فإن إبراهيم عليه السلام خاض تجربة تغيير طرق التفكير حين حاول أن ينتقل بتفكير قومه من التفكير الحسى إلى التفكير العقلانى النقدى، لينتقل بهم من قوم يعبدون الكواكب والقمر والشمس وكلها حسية، إلى قوم يعبدون الواحد المجرد غير المرئى، والانتقال من الحسى المادى إلى المجرد غير المرئى لا يكون إلا بالعقل. وحين أنكر عليهم عبادة الأصنام وسألوه إن كان هو الذى حطمها قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، إنه يحاول أن ينقلهم من المنطق الحسى إلى المنطق العقلى. كما انتقل مع النمرود من الحجاج الحسى إلى الحجاج العقلى. إذن وفق هذا التأويل؛ وهو ما فصلنا فيه القول فى كتابنا نحو تأسيس عصر دينى جديد؛ نجد أن إبراهيم عليه السلام اتخذ من المنهج العقلى طريقا للوصول إلى الحقائق الواضحة والمتميزة، هو ما قامت عليه الفلسفة العقلانية الحديثة التى افتتحت مع فلسفات وحركات علمية وفنية واقتصادية أخرى العصر الحديث التى ودعت فيه أوروبا عالم العصور الوسطى. فالمشكلة التى واجهها أبو الأنبياء فى عصره كانت مشكلة العقل الجمعى المغفَّل والنخبة الضالة؛ ومنهجهم القائم على المنهج الحسى واليقين المطلق بصحة أقوال السابقين وسدنة الدين والتاريخ. والمشكلة التى واجهها فلاسفة العقلانيةالمحدثون هى أيضا سيادة روح القطيع وأقوال الكهنة وتفسيرهم الأحادى للكتاب المقدس. هكذا رفض إبراهيم عليه السلام إسكات عقله، وهكذا رفض فلاسفة العقلانية إسكات عقولهم. مع إبراهيم بدأ دين جديد يرفض التقليد، ومع فلاسفة العقلانية تم الشروع فى تأسيس عصر جديد وخطاب فكرى جديد تراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذى كان يحتكر فيه رجال الدين فى أوروبا الحقيقة الواحدة والنهائية، لمصلحة طريقة جديدة فى التفكير تقوم على إخضاع كل شيء للفحص العقلى النقدى الحر الذى يستند إلى التحليل والمقارنة والفرز ووزن الأدلة ومصادرها وسلامة الاستدلال ودقة الانتقال من المقدمات إلى النتائج. وهنا يكمن سر التحول نحو عصر جديد.

نحو ميلاد عقل مصري جديد

١٢ مايو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إذا كانت نقطة البدء فى التحول إلى عصر جديد، هى تغيير طرق التفكير بوصفها الحاكمة لتطوير العقل المصرى كأساس للدخول إلى عصر الحداثة، فإن هذا يستلزم الخروج على الأفكار اللاهوتية والاجتماعية والأيديولوجية العتيقة التى تعلق بأهداب العقل المصرى وتكبله عن أية خطوة للأمام.

وهنا يجب الثورة على الرؤية الدينية التقليدية للعالم، تلك الرؤية التى ورثناها من التراث والمليئة بالأساطير والإسرائيليات والموروثات الشعبية، والتى ليس لها علاقة بالدين فى نقائه الأول. فما هى إلا أيديولوجيات بشرية تقنعت بأقنعة إلهية. وفى المقابل العمل الجاد على حلول النزعة الإنسانية محل النزعة اللاهوتية المفارقة فى تنظيم العالم الإنساني، والسعى المنهج إلى بزوغ الفكر السياسى العقلاني، والاجتهاد فى توسيع تأثير حركة الإصلاح الدينى العقلاني، والانفتاح الكامل على مكتسبات الحضارة الأوربية والشرق آسيوية. وبطبيعة الحال لن يحدث هذا التحول فجأة، كما لن يحدث بشكل طفري، بل يجب التحول تدريجيا، وبشكل مصاحب لصعود فكرة الدولة الوطنية، وزيادة معدل المشاركة السياسية، واتساع رقعة إصلاح القوانين العامة التى تنظم العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويجب أن يكون هذا التحول فى كل محاوره السياسية والقانونية والتاريخية مرتبطا بتأكيد إعادة بناء العقل المصرى بوصفه الأساس المكين لتدعيم عملية التقدم والتنمية الشاملة.

فعملية الدخول فى عصر الحداثة تقوم –فيما تقوم عليه– على إضفاء قيمة نظرية كبرى على الإنسان العقلاني، وتحويله من الهوامش إلى المتن، ومن الأطراف إلى المركز، على المستوى الابستمولوجي أى على المستوى المعرفي، لأن التغيير المعرفى يسبق أى تغيير أو أى علاج، والعقل النقدى هو الأساس فى أى علاج معرفى لأمراض الحضارة التى أصابتنا.

وهذا ما أدرك كنط الفيلسوف الألمانى جزءا رئيسا منه فى تحليله لسبب تقدم العلوم الطبيعية والرياضية تحديدا؛ حيث صار العقل –كما لاحظ كنط– هو المؤسس لمعرفة الظواهر. ولن أدخل القارئ فيما يبدو إليه معقدا من فلسفة كنط، فقد تناولنا ذلك فى مجموعة من المؤلفات، لعل من أهمها: المعقول واللامعقول فى الأديان، والعقل وما بعد الطبيعة. ويكفى هنا الإشارة إلى الفكرة التى نود تأكيدها، وهى أن العقل الخالص، أو الأنا المفكرة، أو الوعى الذاتي، هو الأساس. ومن ثّم فجوهر الحداثة فى تصور الإنسان، هو النظر إليه بوصفه نقطة البدء فى المعرفة ومركزها، بعيدا عن الأنساق اللاهوتية والسحرية. وعملية المعرفة التى أقصدها غير عملية المعرفة التى يقصدها كنط، فهو يقصد عملية المعرفة فى العلوم الطبيعية والرياضية، وأنا أقصد عملية المعرفة العامة بوصفها أساس عملية الإدراك العقلى عند المواطن. ويتحدث كنط عن تقدم العلوم بينما أتحدث أنا عن تقدم العقل الجمعي. وعلى الرغم من اختلاف الميدان الذى يتحدث عنه كنط عن الميدان الذى أتحدث عنه، فإن أساس عملية الإصلاح واحدة، وهو أن العقل هو نقطة البدء؛ ولذا فإن عملية التقدم مرهونة بعملية إصلاح كبرى للعقل الجمعى المصري، لا سيما وأن العقل هو القلب من إعادة بناء الإنسان وإعادة بناء مفاهيمه عن العالم والطبيعة والتقاليد والعادات.

ولذا يقول داريش شايجان فى كتابه «موجات الحداثة»: إنّ الحداثة توقظ التشككات بقدر ما تولّد التخيّلات الأكثر ارتباطا بالمستقبل. وابتداء من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ستحدث ظاهرة فريدة فى سياق الثقافة الغربية، ظاهرة لا نجد لها مثيلاً فى الحضارات الأخرى القائمة على ظهر البسيطة، وهى ميلاد نظرة جديدة إلى العالم، نظرة دَهْرانية حقًّا تجعل ذاتية الإنسان، واستقلاله تجاه قوى الطبيعة، وتجاه التقاليد، وتجاه العادات المكتسبة عبر العديد من القرون، تكتسب قيمة إيجابية جديدة، وتجعل من عقل الإنسان أساسًا لكل كائن ولكل معرفة.

وهكذا يجب أن تظهر العقلانية كتعبير عن الذات وفاعليتها فى المعرفة والمجتمع. وهكذا يجب أن يصير كل شيء موضوعا أمام العقل لتمثله وفهمه، وإصدار الحكم عليه. وفى الحالة المصرية لابد من إصلاح هذا العقل حتى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الضرورية فى عملية التحديث والتنمية، وحتى يتمكن من الإدراك النظرى والعملى الصحيح للعالم والكون والمجتمع والدولة، ومن ثّم إعادة التشكل للخروج من دوائر الأسطورة والرجعية والعواطف إلى دوائر العلم والتقدم والعقلانية.

والعقلانية ليست أية عقلانية من أى نوع، فالجميع يدعى إعمال العقل، لكن تارة تجدها عقلانية دجماطيقية متعصبة وتارة عقلانية دينية تسلطية، وتارة عقلانية حزبية أيديولوجية... إلخ. والعقلانية المقصودة هى العقلانية النقدية التى تحكم سيرورة العقل على أساس من القواعد الحاكمة للتفكير فى الحياة العامة والتى لا تختلف من حيث الجوهر عن خطوات التفكير المتبعة فى العلوم. إننا نريد مجتمعا عقلانيا يحكم فيه العقل النقدى وليس العقل الموروث القائم على النقل والاتباع وسرعة إصدار الأحكام، والإدعاء المزيف للفضيلة، وفرض الوصاية على أفكار الآخرين. إننا نريد العقل النقدى الذى ينقد ذاته قبل أن ينقد الآخرين، والذى يتيقن من أحكامه ويتحقق منها قبل أن يصدرها، ويثور على تخلفه قبل أن يثور على الآخرين. فلا تحديث بدون تأسيس عقل مصرى جديد.

العقل المصري الجمعي : أفكار قديمة في ثوب جديد!

١٩ مايو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

ربما لا نختلف أن هناك عقلا جمعيا مصريا يميز المصريين عن غيرهم من الشعوب، فالمصريون لهم طريقتهم فى إدراك الظواهر والأشياء والحوادث والعلاقات، ولهم طريقتهم فى التعامل معها. وليست ثمة مشكلة فى أن يكون لشعب من الشعوب عقل جمعي، لكن المشكلة الحقيقية تكمن فى أن العقل المصرى الجمعى لا يزال يعمل فى حدود آليات تفكير قديمة ومتوارثة داخل مخزون عقلى ونفسى متراكم عبر قرون.

وتنتج هذه الآليات الأفكار نفسها فى كل عصر، حتى وإن ارتدت ثوبا جديدا، فكتلة المعتقدات الكلية واحدة ولكن الثياب جديدة. ولا تزال طرق التفكير وآلياته المستمدة من خبرات المجتمع التاريخية وتجاربه تنتج المعتقدات نفسها والمواقف السلوكية المشتركة، وكأن هناك نفسا مشتركة أو روحا واحدة تعمل بطريقة لا شعورية كقوة للتوحيد الإدراكى داخل المجتمع المصرى تدفعه للتصرف بطريقة واحدة تجاه التحديات الكبري، وأيضا فى المواقف الطارئة، بل وفى الحياة اليومية نفسها.

وهذا ما يمكن أن نطلق عليه روح القطيع، لكن من الضرورى أن نؤكد أن روح القطيع أو العقل الجمعي، ليست صفة مميزة للشعب المصرى دون غيره من الشعوب، بل روح القطيع ظاهرة تحكم كل الشعوب، ولكل شعب عقله الجمعي. لكن صفات العقل الجمعى تختلف بين شعب وآخر، وحضارة وأخري، وهذا يجعل شعبا من الشعوب يسير فى طريق التقدم، بينما شعب آخر يقبع فى التاريخ يكرر ذاته ويعيد إنتاج نفسه.

وإذا أردت أن تعمل على التغيير لابد أن تعمل على هذا العقل الجمعى تشخيصا وعلاجا، ولابد أن تطرح سمات العقل الجمعى المصرى للنقاش والتدقيق الجماعى والمقارنة مع العقول الجمعية للشعوب الأخري؛ وذلك حتى نعرف أنفسنا ونشخص أمراض تفكيرنا. والتشخيص لابد أن يسبق بداهة– العلاج المعرفى الذى نسعى إليه.

ويأتى إصلاح العقل الجمعى والآليات الحاكمة لطريقته فى التفكير ضروريا لإعادة بناء الإنسان المصري؛ لأن العقل الجمعى محكوم دون وعى بمخيال اجتماعى وقبة حديدية أيديولوجية تعمل فيها رؤية العالم Worldview التى تتضمن كل التصورات والمفاهيم التى تشكل الأساس النظرى للفهم والتفكير والفعل؛ لأن التصورات والمفاهيم هى شرط أولى قَبْلى بلغة الابستمولوجية أو نظرية المعرفة، وأى تطوير للعقل الجمعى المصرى سيفشل فشلا ذريعا إذا لم تكن التصورات والمفاهيم الكلية منضبطة فى عقول الناس، إنها بمثابة النظارة التى تلون كل ظاهرة بلونها تبعا للون العدسات، فالتصورات والمفاهيم الكلية الأولى تلون كل ما يتلوها بلونها الخاص، فهى بمثابة العدسات التى ينظر منها المرء، فإذا كانت حمراء فسيرى كل شيء أحمر، وإذا كانت صفراء فسيرى كل شيء أصفر، وإذا كانت سوداء فسيرى كل شيء أسود! وهكذا.

إن رؤية العالم الحاكمة للعقل الجمعى هى التى تشكل كود التفكير، وتضع المسارات والمحددات التى فى ضوئها يتشكل الفعل الحضارى وطرق التفاعل مع الظواهر والأحداث وتحديات المكان والزمان.

وربما يكون مجديا توضيح ذلك للقارئ الكريم بما سبق تأكيده فى كتاب نحو تأسيس عصر دينى جديد، وفيه تم إيضاح أن رؤية العالم، ولا يعنينى هنا إن كنت متفقا أو مختلفا مع إمانويل كانط أو وليلهام دلتاى أو غيرهما, أقول رؤية العالم: هى الإطار العام الذى نفهم به كل ما يحيط بنا : الكون، الحياة، الناس، مستويات الوجود، والثقافات العالمية، بل هى الإطار الذى نفهم به أنفسنا أيضاً؛ لأن رؤية العالم، هى المجموعة الأساسية من التصورات الافتراضية عن العالم وتتضمن فى داخلها كتلة المعتقدات الكلية التى يحيا بها الإنسان؛ وفى ضوئها يضع الوعى الجمعى للناس علاقاتهم مع العالم، ونجد لها انعكاسات واضحة على الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

وعلى هذا فإن وظيفة الرؤية هى وظيفة معرفية تعمل عملها فى العقل الجمعي، وهى نقطة جوهرية فى التغيير والتحول نحو الحداثة الحقيقية والتنمية الشاملة؛ وما الفرق بين عوالم الرجعية والظلام والتخلف وعوالم التقدم والأنوار والحداثة؛ إلا فرق بين عقل جمعى متجمد محكوم برؤية سحرية لاهوتية للعالم وعقل جمعى ديناميكى محكوم برؤية عقلانية علمية للعالم.

والتحول من العقل الجمعى المتجمد عبر العصور إلى العقل الجمعى الديناميكي، لا يمكن أن يتم إلا عبر عمليات حفر معرفى وتفكيك عناصر رؤية العالم بكل جوانبها العقائدية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والوجدانية. ومن ثم نقل هذا العقل الجمعى من عقل قبل الوعى أو ما وراءه، إلى عقل تحت مظلة الوعى وإدراكه.

إن العقل الجمعى هو العقل اللاوعي، وتقوم عمليات الحفر المعرفى والتفكيك بنقله من اللاوعى إلى الوعي، ويصبح محل مكاشفة ونقد. ولا يمكن هذا بدون إدراك ضرورة تطويره وتحويله من عقل ساكن جامد قابع فى اللاوعى الجمعى يكرر نفسه فى رتابة لامتناهية عبر العصور، إلى عقل قابل للتطوير المستمر ويتقدم باطراد من جراء الوعى الذاتى والتدخل الإرادى المستمر ومشاركة العقول الحضارية الأخري.

وهنا يمكن أن يتحول العقل المصرى الجمعى من عقل معطى مسبقاً بشكل جبرى إلى عقل مصنوع اختيارا.

متى يتجاوز العقل المصرى منابر الثرثرة؟

٢٦ مايو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

نحن لا نسمع إلا ثرثرة وادعاء فضيلة، لا نسمع من الذين ينصبون أنفسهم أوصياء على الناس والمجتمع إلا كلاما كثيرًا، ولا نجد إلا عملا قليلًا، مع عجز كامل عن الفعل المؤثر فى الواقع إلا سلبا، وما حكمتهم إلا ثرثرة فوق النيل، ربما بمعنى ما من المعانى التى كان يقصد إليها نجيب محفوظ درة من أخرج قسم الفلسفة بجامعة القاهرة. لكنه ليس المعنى كاملا لأن الثرثرة فى عصرنا أصبحت واسعة النطاق وعلى المفتوح فى وسائل التواصل الاجتماعى، وأصبحت ذات تأثير سلبى واسع، حيث تحول بعض المصريين الذين يفتون ويتَفَيْهَقون فى كل شىء إلى أصحاب منابر على الفيس بوك وتويتر، يحللون كل شىء كخبراء متخصصين تخصصات دقيقة فى الموضوع!.

والفارق بين الثرثارين الذين تحدث عنهم نجيب محفوظ والثرثارين فى عصرنا، أن الثرثارين القدماء لم تكن ثرثرتهم ذات تأثير سلبى فى الواقع، أما الثرثارون فى عصرنا فإنهم يسهمون فى إحداث حالة من الفوضى غير الخلاقة، وإرباك الإدراك العام، وتشتيت العقل الجمعي؛ وقلب معايير إصدار الأحكام والتقويم، وفرض الوصاية على الآخرين!.

وللأسف أن هؤلاء الثرثارين الذين ينصبون أنفسهم للوصاية على الناس، لا تجد منهم إلا كلاما فى فنون الإدارة وفنون الحكم، مع أن كثيرا منهم لا يستطيعون أن يديروا منازلهم، ولا حتى يستطيعوا أن يديروا أنفسهم! إنهم يضعون لك معالم المدينة الفاضلة فى كتاباتهم، لكنهم لا يستطيعون أن ينفذوا منها شيئا فى الدوائر التى يعملون بها ولا حتى فى أنفسهم أو منازلهم!.

وربما لم يختلف جوهر شخصيات نجيب محفوظ فى رائعته ثرثرة فوق النيل عن جوهر شخصيات الثرثارين فى عصرنا. إن شخصيات نجيب «أنيس، أحمد نصر، مصطفى راشد، على السيد، خالد عزوز، رجب القاضى، سمارة، حارس العوامة»، لا يزالون يعيشون بيننا، لكن خريطة مثالبهم أصبحت أكثر اتساعا وعمقا، وانضمت إليهم شخصيات جديدة نتيجة الحراك الاجتماعى الزائف الذى حدث فى العقود الأخيرة، الأمر الذى يستوجب ظهور روائى جديد كى يقص قصتهم فى عصر الثرثرة الجديد. والأمثلة كثيرة، فنجد من يفشل طوال حياته، ثم ينصب نفسه مصلحا اجتماعيا! وهو نفسه الذى يفشل فى كل معاركه الحقيقية لكنه يجيد النجاح فى المعارك الوهمية! ونجد من ينقد الآخرين، ويجعل نفسه شهيد العصر والحارس على قيم الأجداد، وهو لا يستطيع أن يبرح غرفته، ولا يدرى أن هذا إحدى علامات المرض النفسى! ونجد من يتمتعون بذاكرة السمكة ولا يحكمون على الشخص أو الظاهرة فى سياقها الاجتماعى أو التاريخي، ولا يحكمون على الناس فى ضوء تاريخهم كله، بل يحكمون عليهم بموقف عابر أو جزئي! ونجد من يقتطعون العبارات من سياقها ويحرفون الكلم عن مواضعه ثم يقيمون موائد النقد من أجل بطولة زائفة!.

ونجد من يتخذ نقد الآخرين حرفة لابتزازهم، وفى سبيل هذا يكذب ثم يكذب ثم يكذب، ثم يدعى أنه شجاع أو موضوعي! ومثل هذا كل من يستمع له ويصدق كذبه ويتناقله دون تحرى الحقيقة، فهو ومَنْ على شاكلته :«سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك». وربما لا تكون هذه النماذج جديدة بشكلٍ مطلق، بل متوارثة، لكنها أصبحت الآن تتسيد منابر الإرجاف والشوائع.

ولأننا لا نتعلم، ونملك ذاكرة فريدة تتميز بسرعة النسيان، فإننا لا نتعلم أبدا من مفكرينا الذين نتشدق بقيمتهم، مثل طه حسين الذى عانى الظواهر الصوتية الجوفاء فى عصره، فقال عنهم: «الذين لا يعملون يؤذى نفوسهم أن يعمل الناس»، ولذا دعا الله قائلا: فلنبتهل إلى الله فى أن يبرئنا من علة الكلام الكثير، فلعلنا إن برئنا من هذه العلة أن نجد العزاء عن آلامنا وكوارثنا، فى العمل الذى يزيل الآلام، ويمحو الكوارث، ويجلى الغمرات.

وعلى الرغم من تنبيه طه حسين، ظل الأغلب منا يتكلمون ويظنون أنهم يفعلون، فإذا أردت الإصلاح عليك التحدث فقط عن الإصلاح دون ممارسة فعل الإصلاح! وإذا أردت التقدم تحدث فقط عن التقدم ولا تمارس فعل التقدم! وإذا أردت التغيير تحدث فقط عن التغيير ولا تمارس فعل التغيير! والأفضل أن تتحدث عن تغيير كل شىء إلا تغيير نفسك!.

إننا لا نزال مثاليين فى أحلامنا، لكننا منفصلون عن الواقع ونحلق فى عوالم من أضغاث أحلام، وتحركنا الأوهام، ويضللنا معسول الوعود والكلام، ولا نزال غير قادرين على التفرقة بين القدرة على الكلام والقدرة على الأفعال!.

والأسئلة الواجبة هنا: متى ينتهى عصر الثَّرْثَارين، والْمُتَشَدِّقين، والْمُتَفَيْهِقين؟ متى يتجاوز العقل المصرى عصر الظاهرة الصوتية إلى عصر الفعل؟ متى يتحول من الحديث عن التقدم إلى ممارسة فعل التقدم؟.

الوعى على أجندة الإصلاح

٢ يونيو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لماذا الوعي؟ لأنه موضوع مُهمل فى أغلب المشاريع الفلسفية للإصلاح فى الفكر المصرى الحديث، على الرغم من أن الوعى هو على أهم أولويات أجندة الفلاسفة فى الغرب، لدرجة أننى أشعر أحيانا أننا فى غيبوبة، أو مثل الزومبى «الموتى الأحياء». إن الوعى الحقيقى هو الرافعة الفعالة للشعوب، وهو الفاصل بين التأخر والتقدم، مثلما أن الوعى هو الذى يميز الأحياء عن الأموات وعن الموتى الأحياء!

ولا شيء يمكن أن يحدث فى حياتنا تجاه التقدم دون وجود حالة من الوعى الحقيقى لا الزائف. فالوعى هو الذى يحرك السلوك أيا كان، مثلما يجعلك تحرك يدك عندما تريد ذلك إما لمعاونة عاجز أو لاغتصاب ما لا يحق لك، أو مثلما يجعلك تتصرف طبقا لمفهوم الواجب أو طبقا لمبدأ الانتهازية. فالوعى هو الذى يجعلنا نسلك سلوكا حضاريا أو جاهليا، ونتصرف بتسامح أو بتعصب، وما الفارق بين هذه وتلك إلا الفارق بين الوعى الحقيقى أو الوعى الزائف.والوعى هو الذى يجعلنا نبنى قصورا من الرمال أو قصورا من التقدم. وما الفارق بين هذه وتلك إلا الفارق بين المعارك الحقيقية والمعارك الزائفة.

ما طبيعة الوعي؟ الوعى له تعريفات كثيرة فى الفلسفة والعلوم المختلفة، وربما لو سألت الفلاسفة كلهم عن الوعي، فلن تجد له تعريفا واحدا، وسوف تجد جدلا لا ينتهى حول ماهية الوعي. ولا يعنينى هنا كل تلك التعريفات سواء عند الفلاسفة أو العلماء فى العلوم الإنسانية والاجتماعية. وسوف أستخدم الوعى بطريقة إجرائية تمكننا من تحديد دوائر الوعي، وبالتالى يمكن التعامل العملى معه؛ لأن التعامل النظرى المفرط للوصول إلى الماهية الميتافيزيقية يعطلنا كثيرا عن الإنجاز على أرض الواقع، وربما نقع فى ترف عقلى لا قيمة له. ويمكن القول إن الوعى يضم كل تلك الحالات والجوانب غير الجسدية فى الإنسان، فالوعى هو التيار العام لحالات الإدراك أو الإحساس أو الشعور أو التفكير أو الأفكار أو المفاهيم، كما هو القبة التى تحيط بعمليات التعبير واللغة والتخيل والذاكرة والتقدير وطريقة الحكم على الأشياء والتمييز، وفيه تتم معالجة الانفعالات والمشاعر والموجهات النفسية والمدركات العقلية التى يعمل الإنسان ويتصرف بناء عليها، سواء كان وعيا علميا أو وعيا زائفا. وهذا الوعى يتأثر بطبيعة الحال بالعقل الباطن أو العقل اللاواعى.

والوعى أعم من العقل؛لأنه يحتوى كل حالات الشعور، سواء كانت نظرية أو عملية وسواء كانت ذهنية أو تخيلية أو تذكرا أو تفكيرا استنباطيا أو استدلاليا، وسواء متعمدة أو عفوية. ويشمل العقل النظرى والعقل العملي، والحدس والوجدان والذاكرة والتأمل، وهو إدراك للذات والأشياء فى ديمومتها. وهو تيار متدفق مفتوح على الزمان:الحاضر والماضى والمستقبل. والوعى يحدد طريقة إدراك العالم والآخرين، ويحدد العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والعالم والآخرين؛ والوعى هو الذى يحدد أيضا درجة الشعور بالواجب والمسئولية، والتمييز بين الجمال والقبح، وإدراك طبيعة وحدود قدراتنا، وتحديد الطريق الموصل إلى الأهداف... إلخ.

والوعى غير المعرفة لأنه يمكن أن يكون عندك معارف لكنك لا تستطيع أن تترجمها إلى وعي، مثل الهارد ديسك، به معلومات لكن لا يستطيع أن يصنع منها تقدير موقف، وهذا قد يحدث مع أى منا فى بعض اللحظات أو أغلبها أو كلها! ويمكن أن أضرب لك مثلا على ذلك بالمعلومات التى كانت عند أمريكا عن كل التحركات المصرية قبل حرب أكتوبر، لكنها لم تستطع أن تفسر تلك المعلومات تفسيرا صحيحا لأنه كان يسيطر عليها وعى زائف محكوم بآراء مسبقة؛ فهى تملك المعرفة لكنها لا تملك الوعى الحقيقى بالمعرفة. كما أن السادات استطاع أن يقوم بتحركات صنعت سحابة دخان أدت إلى إرباك المدركات عند المحللين وأوقعتهم فى سوء تفسير المعلومات، وتسببت فى عمى استراتيجى عند أمريكا وإسرائيل. ولذا قال هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق إبان حرب أكتوبر فى كتابه «سنوات القلاقل» :إن الهجوم المصرى السورى كان مفاجأة استراتيجية وتكتيكية كلاسيكية، نشأت عن سوء تفسير الحقائق التى كان متاحا للجميع أن يروها.

والوعى غير الدماغ، ولا يمكن اختزاله وتحديده على أنه المخ، كما أنه ليس مجموعة من الظواهر الفيزيائية أو العصبية، ولا يمكن أن يتم صناعة آلة تملك الوعى الذاتى الذى يملكه الإنسان العاقل. فالوعى ينتمى إلى الروح والأبدية على الرغم من أنه يعيش فى الجسد ويتأثر به، وعلى الرغم من أنه يتأثر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية وعلاقات الإنتاج، وعلى الرغم من أنه يتأثر باللاشعور.

إذن يشمل الوعى كل تلك الدوائر، لكنك لا تستطيع أن تختزله فى أى منها، فمنها ما ينتمى إلى العقل أو الوجدان أو الغريزة أو النفس، ولذا فالوعى هو تيار أو مجال عام أو سحابة أو قبة تعلو تلك العناصر أو الملكات، قل ما شئت، لكن لا يمكنك إنكار الوعي. ومع أن الوعى لا تزال ماهيته غامضة لا تثير الجدال فقط بين الفلاسفة، بل تثير الجدال أيضا بين العلماء، فإن العناصر المؤثرة فى الوعى يمكن تفكيكها والتعامل معها ومعالجتها وإعادة تشكيلها من أجل التحول نحو الوعى الحقيقى الذى يصنع التقدم. وهذا ما يجب أن نقوم به مع الوعى المصرى الذى حان وقت إعادة تشكيله. ومن ثم يجب أن نرسم طريقة عمل لإصلاح العناصر المؤثرة فى الوعي.

هل يمكن فك أكواد الوعى المصرى؟

٩ يونيو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

الوعي الحقيقي يعرف القوي المحرِّكة له، وماذا يريد، وكيف يصل إلي ما يريد، بينما الوعي الزائف يجهلها ويتصرف كالقطيع الذي ينساق بقوي كاذبة دون أن يدري، متخيلا أنه حر الإرادة!.

وأيا كانت درجة وعينا كبيرة، فإن الوعي يظل وعيا نسبيا غير محيط بالحقيقة المطلقة لكن هذه النسبية لا تبطل الوعي الذي ينمو عبر الزمان، ولا تقلل هذه النسبية من قيمة الوعي، بل يجب أن تدفعنا لزيادة الوعي يوما بعد يوم. ولا تجعل هذه النسبية الشعوب الواعية في منزلة واحدة مع الشعوب غير الواعية؛ والفيصل بينهما والمعيار الذي يمكن أن نميز به بين الوعي الحقيقي والوعي الزائف هو النتائج علي الأرض؛ فلا شك أن الشعوب المتقدمة في العلوم والفنون ونمط الحياة والالتزام الاجتماعي أفضل من الشعوب المتخلفة؛ حتي وإن زعمت تلك الأخيرة أنها تملك الحقيقة المطلقة!.

وكل حالات السلوك ترجع إلي الوعي واللاوعي (بالمعني النفسي)، وإن شئت العقل الظاهر والعقل الباطن، الأمر الذي يحيلنا إلي القول إن إعادة تشكيل عمليات الوعي تستلزم أن نعرج إلي ضرورة إعادة تشكيل اللاوعي أو العقل الباطن؛ ولا يمكن إعادة تشكيل الوعي واللاوعي إلا بالوعي الذاتي النقدي، ومن هنا فإن الوعي الذاتي النقدي هو فريضة حضارية في ارتقاء الإنسان.

أعود فأقول إن أهمية الوعي أنه يسبق السلوك، وهو الذي يضع الخواص العليا أو خواص النظام الحاكم للسلوك، والتمييز بين الصواب والخطأ، وإدراك الجمال والقبح. وبعبارة أخري يضع أنظمة الوعي بالحق والخير والجمال. ويمكن لك إذا أردت تغيير أنظمة الوعي والتمييز عند فرد أو شعب، أن تسلك معهم مسلكين، هما: المسلك الأول: الإجبار. المسلك الثاني: تغيير الوعي.

والمشكلة في المسلك الأول أن الأخلاق تكون صورية جوفاء قائمة علي الإلزام وليس الالتزام، وهذه الطريقة أنتجت مع بعض الشعوب نتائج إيجابية، ولا أريد أن أذكرها بالاسم منعا للوقوع في حرج، ولعدم إعطاء فرصة للذين يتصيدون الكلام ويخرجون به عن سياقه. وفي كل الأحوال - وقول واحد- إن الشعب المصري لا تصلح معه هذه الطريقة، فلديه من الإباء ما يحول بينه وبين قبول هذه الطريقة، وقد استطاع عبر العصور أن ينمي (آليات وحيل) يتغلب بها علي أي إجبار، سواء من المستعمر أو قوي الإقطاع أو غيرها.

ولذا فالمسلك الثاني هو الذي يطرح نفسه، حيث من الضروري العمل علي تطوير الوعي المصري وإعادة تشكيله وهذا غير ممكن بدوره دون فك أكواد الوعي المصري التي لاتزال عصية حتي الآن وكأنها شفرة سرية، حتي علي علوم المستعمرين عبر العصور! ففي كل مرة يتغير المستعمر ولا يتغير المصري. وهذه ميزة فريدة لنا في تحدينا لأي مستعمر.

لكن المشكلة هي استنتاج نتيجة عامة من هذه الحالة الجزئية، يصبح معها عدم التأثر بالحضارات الأخري ميزة! حتي إن البعض يفتخر كثيرا بكونه يغيِّر في الآخرين ولا يتأثر بهم في كل مراحل الاحتكاك الحضاري! وهذا في ظني عيب وليس ميزة، فليس من العيب أن أتأثر بالحضارات الأخري في مميزاتها وأن أستفيد منها. فهذا شيء آخر غير عدم تأثرنا بالمستعمر، فإذا كان مَن يتفاخرون بعدم تغير المصريين واستعصائهم علي التأثر، يقصدون أنهم يؤثرون في الاستعمار ولا يتأثرون به، فهذا ولاشك ميزة كبري وفريدة، لكنها ليست مطلقة في حالات الاحتكاك الحضاري لأن الحكمة والعلم والفنون والحضارة ضالة الحكيم، يجب أن يسعي إليها ويأخذ بها حتي لو عند الأعداء، دون انبطاح أو رضوخ. فالتأثر المطلق مرفوض، وعدم التأثر المطلق مرفوض أيضا الوعي هو أن أعرف ماذا آخذ وماذا أدع.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الوعي المصري متقدم؟ وهل يمكن أن نقول إنه وعي علمي وتقدمي وليس وعيا مزيفا؟

إذا كانت الأمور تقاس بنتائجها علي أرض الواقع، فيمكن أن أقول إن الوعي العام به مشكلة حقيقية، مقارنة بالأمم والشعوب الأخري التي تحتل قمة التقدم علي خريطة العالم المعاصر. فلسنا شعوبا متقدمة مثل شعوب أوروبا الغربية، ولسنا متقدمين مثل دول جنوب شرق آسيا. ربما نملك تاريخا لا يملكونه، لكن نحن نسأل عن (الآن) وليس عن ما (كان)، نسأل عن حاضرنا وليس عن ماضي الأجداد.

وإذا كان منا أناس غير مصدقين لهذه الحقيقة، حقيقة أن هناك أمما تسبقنا سبقا كبيرا علي سلم التقدم، وأنها تملك وعيا يفوق وعينا بكثير، وإذا كان منا طائفة أو طوائف لا تزال تعتقد أننا الأفضل وأننا نملك الحقيقة المطلقة وأننا صالحون وهم فاسدون، فاعلم أن التغييب وصل منتهاه وأن الوعي الزائف يعمل بقوة، وأن هذه الطوائف منا لا تعرف الحساب الدقيق لحدود قدراتنا. وإذا كانت من بيننا طائفة تنظر لأمتنا في المقابل نظرة عدمية تنكر أية ميزة وأية فضيلة، فاعلم أن التطرف بلغ منتهاه، وحال هؤلاء نراه ماثلا في كل من يعتقدون أننا في جاهلية مطلقة! فالذين يمجدون الذات تمجيدا مطلقا مغيبون، والذين يبخسون الذات بخسا مطلقا متطرفون، وبين هؤلاء وأولئك يضيع الوعي الحقيقي.

محاور تطوير العقل المصري (١-٣)

١٦ يونيو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟ سؤال قديم جديد، قدم السابقون عليه إجابات شتي، لكنها إجابات تم التوصل إليها مباشرة دون طرح أسئلة ضرورية قبلها، وقد فشلت تلك الإجابات لأنه لم يتم التأسيس لها معرفيا بالقدر الكافي؛ ولأنها لم تكن لها خريطة معرفية تقوم على الوعى بالحدود وحساب القدرات بشكل مقارن مع الأمم الأخري، ولأنها لم تبحث فى المنهج وطريقة التفكير، وأسباب الانتقال من عصر إلى عصر. وكانت معظم الإجابات عن هذا السؤال إنشائية تقدم حلولا عامة متسرعة، من قبيل (الاشتراكية هى الحل)، (الليبرالية هى الحل)، (الإسلام هو الحل)، (السلفية هى الحل)، إلى آخر القائمة.

وفى كل مرة لا يعلم هؤلاء أن أى حل من تلك الحلول بألف وجه، وأن هناك وجوها تقدمية له ووجوها أخرى متخلفة، وأن أى وجه من هذه الوجوه حتى لو كان متقدما لا يمكن أن ينجح دون عقل بشرى متطور. وبإمكانك أن تأخذ ليبرالية بريطانية وأنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبإمكانك أن ترجع إلى نموذج دولة الأندلس، أو إلى نموذج دولة العباسيين ذروة تقدمها، أو النموذج الصينى أو اليابانى أو الألمانى أو غيرها، وتعطى أى نموذج من تلك النماذج لعقل به ثغرات معرفية وطرق تفكير رجعية، لكنك لن تنجح! لماذا؟ لأن البذور والمياه والهواء، كلها لن تكفى لزراعة الجنات دون تربة خصبة! ولذا لابد أولا من معالجة التربة وحرثها حتى تكون صالحة للزراعة. وفى حالتنا نحن لابد من تفكيك العقل المصري، ثم التحليل، ثم التوصيف، ثم المعالجة، ثم إعادة البناء.

إن تطوير العقل العام المصرى لكى يكون عقلا نقديا يفكر بطريقة سليمة، وإعادة بناء الوعى المصرى لكى يكون وعيا حقيقيا وليس وعيا مزيفا، غير ممكن دون معرفة العقل المصرى لطبيعته وطريقة عمله، وحساب حدود قدراتنا على الفعل بعامة حسابا حقيقيا غير مزيف، بعيدا عن التمجيد الزائف، وبعيدا عن جلد الذات المضخم. فأحد جوانب مأساتنا أننا لا نزال نتأرجح فى تقويمنا لأنفسنا تأرجح البندول بين طرفين متناقضين: إما تمجيد مرضى للذات، وإما جلد مرضى أيضا لها. ولا أريد أن أصل إلى القول إن كلا الطرفين أحد علامات مرض الوعي، فكل طرف يعكس مرضا، وإن كان من نوع مختلف!.

فمن أكبر آفاتنا أننا لا نعرف حدودنا ولا قدراتنا فى حجمها الطبيعي. وهذا جزء من طرقنا القديمة فى التفكير التى لابد من نسفها وهدمها من أجل تطوير العقل. وهذه الآفة العقلية ضرتنا ضررا بالغا عبر التاريخ، وعلى سبيل المثال فى حرب اليمن، وحرب ١٩٦٧ م، فقد رأينا تمجيدا مبالغا فيه وادعاءات قوة لا حدود لها، وعدم حساب قدرات العدو وقدراته الحقيقية حسابا دقيقا، فكانت النتيجة ما يعلمها الجميع! لكن عقب ذلك خفوت الصوت وصعود العقل والحساب الدقيق للقدرات، فكانت حرب الاستنزاف بكل بطولاتها التى استهدفت انتصار الإرادة، وهى الحالة التى صورها فيلم (الممر) ببراعة. فهذا الفيلم يمكن قراءته قراءة عقلية توضح الفرق بين حالتين (قبل) و(بعد)، الحالة الأولى (علو الصوت وخفوت العقل) والحالة الثانية (خفوت الصوت وصعود العقل)، وفى الحالتين كانت هناك إرادة، لكن الإرادة الأولى كانت مؤسسة على العاطفة الجوفاء والصوت العالي، والإرادة الثانية كانت مؤسسة على التخطيط العقلانى وحساب القدرات. وكان العقل يقتضى فى ضوء قدراتنا الرد بهجمات نوعية وليس بحرب شاملة. ثم كانت حرب ١٩٧٣م بكل ما فيها من عقلانية فى التخطيط وحساب القدرات الفعلية على الأرض والخداع الاستراتيجي. وما الفرق بين ٦٧ و٧٣ إلا فرق فى طريقة التفكير والقدرة على ترجمته إلى واقع فعلى على الأرض.

وحتى نستطيع تحويل هذه الحالة العابرة إلى حالة عامة، وتحويل الاستثناء إلى أسلوب حياة، لابد من تطوير العقل المصرى بعامة. والتطوير يمر بمراحل ضرورية، لعل من أهمها ضرورة النقد العقلانى وليس جلد الذات. ويشمل النقد العقلاني: نقد العقل، ونقد المعتقدات، ونقد الوجدان، ونقد طريقة عمل الغرائز، ونقد الأخلاق التقليدية. لكنه ليس أى نقد، بل النقد القائم على التفكيك، ثم التحليل، ثم التوصيف، ثم المعالجة وإعادة البناء. وهذا جوهر التفكير الفلسفى النقدي، لكنه ليس نقدا من أجل النقد، بل نقد من أجل إعادة البناء. والفلسفة الحق ليس مهمتها فقط النقد، بل مهمتها إعادة البناء. والفلسفة الحق ليس مهمتها فهم الإنسان والعالم فقط، بل مهمتها أيضا تغييره.

ولا تغيير دون القيام بتحليل صحيح للوعى المصرى وإجراء محاكمة نقدية لطريقتنا فى التفكير بأعظم قدر ممكن من الدقة والموضوعية والصراحة، ومراجعة وتطوير مجموعة الأفكار التى على أساسها نفكر فى أنفسنا وفى الواقع.

وكل هذا من أجل أن نصل فى النهاية إلى خريطة عمل يكون واضحا فيها:

-الوعى بحدود وطبيعة عقلنا وحساب قدراتنا على الفعل.

- آفاق وحدود الأمل الذى يجب أن نتطلع إليه.

- ماذا يجب علينا أن نفعل.

هذه الجوانب الثلاثة يجب أن تحكم أى خريطة عمل سواء للفرد أو للوطن. ويجب أن يضع كل فرد معالمها فيما يتعلق بشخصه وحده إذا أراد لنفسه تغييرا حقيقيا وتقدما كبيرا فى حياته الشخصية، وأيضا يجب أن يضع معالمها العقل المصرى العام على مستوى الوطن إذا أردنا أن يكون لنا موقع بين الأمم المتقدمة.

محاور تطوير العقل المصري (٢- ٣)

٢٣ يونيو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إذا كانت المعركة بين العقل القديم والعقل الجديد، تقوم فى أحد مظاهرها على صراع التأويلات، فإنها لن تحسم إلا لمن يتمكن من الانتصار فى معركة تغيير «طرق التفكير» فالمعارك فى كل عصور الانتقال من عصر قديم إلى عصر جديد، كانت معارك بين طرق التفكير التقليدية وطرق التفكير الجديدة. (يمكن مراجعة كتابنا: نحو تأسيس عصر دينى جديد). ولكى يقوم العقل العام المصرى بالتحول من طرق التفكير القديمة إلى طرق التفكير الجديدة، ومن ثم التحول من الوعى الذى يحكم القطيع إلى الوعى العقلانى الحر، علينا أن نعرف حدود قدراتنا على حقيقتها، وإتقان حسابات القوة الفعلية التى تمكننا من الوصول إلى تحقيق أهداف التقدم.

ويقتضى هذا أن يطرح العقل العام المصرى على نفسه خمسة أسئلة، هي:

ما طبيعة وطريقة عمل قدراتنا العقلية النظرية؟

ما طبيعة وطريقة عمل معتقداتنا؟

ما طبيعة وطريقة عمل وجداننا؟

ما طبيعة وطريقة عمل طاقتنا الغرائزية؟

ما طبيعة وطريقة عمل منظومة سلوكنا؟

فلا يمكن تطوير العقل العام المصرى إلا إذا تمت قبلا إعادة تقويم هذا العقل والإجابة عن هذه الأسئلة التى تبين طبيعة وحدود العقل العام المصري، وإمكانية تفسير المبادئ والعمليات التى تقوم بها ملكة الاستدلال عندنا، وتفسير أصل وتكوين أفكارنا ومعتقداتنا، وطريقة عمل وجداننا وطاقتنا الغرائزية، والخلل فى منظومة سلوكنا، وتحديد عناصر اللاوعى التى تحرك كل ذلك من راء ستار.

وإصلاح العقل العام المصرى أكبر من إصلاح العقل النظرى فقط؛ حيث إن العقل العام يضم: العقل النظري، والعقل الديني، والوجدان، وطريقة عمل الطاقة الغريزية، والعقل العملي، وسائر العناصر العاملة تحت مظلة الوعى والتى يضمها تيار الوعى مثلما يضم تيار الماء كائنات كثيرة تسبح داخله. ولا يقل عن ذلك أهمية تحديد عناصر اللاوعى التى تعمل وتؤثر فى صمت.

إذن العقل النظرى جزء من العقل العام. وإصلاح العقل النظرى هو نقطة جوهرية فى الإصلاح؛ لأن العقل النظرى هو الذى يقود كل عمليات الإصلاح الأخرى الواجبة فى العقل العام والتى إن تغيرت تغير العقل العام ومن ثم الوعي. هذا إذا كان العقل النظرى يملك من الوعى الذاتى القدر الكافي، وإذا كانت لدينا الإرادة لكى يقود العقل النظرى :(المعتقدات، والوجدان، والغرائز، والسلوك). ولا ننسى أن هذا ما يميز الإنسان عن الحيوان. أما لو تركنا للوجدان أو الغرائز القيادة العامة فسوف نتحول إلى كائنات هشة غير عاقلة وغير حرة، مثل أى كائنات غير عاقلة. وهذا وضع كل الشعوب التى تخلفت عن ركب التقدم؛ وهذا هو الفرق بين الإرادة الحرة القائمة على العقلانية وبين الإرادة المنفلتة التى تقودها الغريزة أو يقودها الوجدان. إذن يجب أن يشمل تطوير المصرى الجوانب الخمسة الحاكمة له تطويرا عقلانيا نقديا بطريقة منظمة، وهي: أولا- تطوير العقل النظري، ثانيا-تطوير العقل الديني، ثالثا-تحرير ملكة الوجدان، رابعا-إصلاح طريقة عمل الطاقة الغريزية، خامسا-تطوير العقل العملي.

أولا-تطوير العقل النظري:

هو الأداة التى تمكِّن الإنسان من الاستدلال على النتائج من المقدمات، واستنتاج الأمور اللامادية، ومعنى الأشياء، والعلاقات بينها. ولا شك أن ملكتنا فى الاستدلال العقلى بحاجة إلى مراجعة قاسية؛ لأننا مصابون بسرعة إصدار الأحكام، والانسياق وراء الأخبار الكاذبة، والفهم المغلوط لكثير من الأحداث، والتركيز على القشور، والحكم على أى شيء بجزء منه! وعدم تحرى الأخبار من مصادرها. إننا أمام كارثة حقيقية فى طريقة الفهم والتعامل مع الأحداث والظواهر والمواقف! والعواطف لا تزال تقود عقلنا النظرى فى الحكم على الأشخاص والمواقف والظواهر، ولا نزال سريعى النسيان لتاريخ أى ظاهرة أو موقف، ولا تزال الطاقة الغضبية هى الحاكمة لنا ونفرغها فى أى شيء، إلخ. إن العقل النظرى المصرى بحاجة إلى الإصلاح، بحاجة إلى التطوير، بحاجة إلى قواعد جديدة للتفكير توجهه إلى طرق الاستدلال والاستنباط السليمة. وتواكب تغيير طرق التفكير حتمية تغيير المفاهيم والتصورات، ولا يمكن تغيير طرق التفكير وتغيير المفاهيم والتصورات دون تطوير اللغة؛ لأن اللغة من وجهة نظرى ليست مجردة صورة للفكر، بل إنها قوالب تشكل الفكر فى كثير من الأحيان عند أولئك الذين يفكرون باللغة دون وعي.

ثانيا-تطوير العقل الديني:

يكاد يكون العقل الدينى التقليدى هو الحاكم للعقل المصرى العام، والعقل الدينى ليس هو الدين نفسه فى نقائه الأصلي، بل هو عقل تكوّن عبر التاريخ، ومحمل بموروثات اجتماعية، ومعتقدات سحرية، وازدواجية قيمية، وحيل مخادعة. وإذا كان الدين فى نقائه الأصلى إلهيا، فإن العقل الدينى هو عقل إنسانى يتكون فى التاريخ وتدخله عناصر إلهية وعناصر اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها، كما أنه يتأثر بدرجة وعى الإنسان فى كل مرحلة. (يمكن مراجعة كتابنا: تطور الأديان).

وتطوير العقل الديني، فى القلب من عمليات تغيير طرق تفكير المسلمين، وإصلاح المعتقدات التى جمدت وانحرفت عن أصولها فى عقولنا، فكثير من المعتقدات يجب نزع القداسة المتوهمة عنها؛ فهى فى الحقيقة ليست إلهية، بل معتقدات سحرية وشركية اختلط فيها الإلهى بالإنساني، بطريقة أنتجت مركبا هجينا غريبا. وأحسب أن التمييز بين المقدس والبشرى سوف يحل كثيرا من إشكاليات العقل الديني، كما سوف يحل الكثير من إشكاليات المعارك الزائفة حول التراث. ولذا فقد أطلقت منذ سنوات الدعوة للتمييز بين المقدس والبشرى فى مناظرة كبيرة بجريدة الوطن المصرية (السبت ٢٨-٠٢-٢٠١٥). ولا يعنى تطوير العقل الديني، تجديد الخطاب الدينى القديم، بل يعنى تأسيس خطاب دينى جديد. ولهذا تفصيل آخر.

محاور تطوير العقل المصري (٣/ ٣)

٣٠ يونيو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

نواصل فى هذا المقال الحديث عن محاور تطوير العقل المصري، من خلال ٣ محاور أخرى وهي:

ثالثا- تحرير ملكة الوجدان: كالعادة لا توجد تعريفات مجمع عليها فى تاريخ الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وإجرائيا فإنى أستخدم الوجدان بمعنى يتسع للعواطف والمشاعر والانفعالات. وعند فحص الوجدان المصري، يمكن توزيع مشاعره وعواطفه وانفعالاته بين دائرتين: الأولي- دائرة الوجود، والثانية- دائرة العدم.

وتتحرك فى دائرة الوجود مشاعر وانفعالات الحب، والرضا، والاطمئنان، والسعادة، والفرح، والرحمة، والغبطة (الحسد البناء)، والجسارة، والتصالح مع النفس، والإباء، والتواضع، وعزة النفس، والكرامة، والشعور بالجمال، إلخ. وهذه الدائرة بها مسارات الحياة والنور والحضارة والإبداع وتحقيق الذات والسمو. ويمكن ان نقول إن مشاعر وانفعالات الدائرة الأولى هى مشاعر وانفعالات البناء المحبة للحياة.

أما دائرة العدم فتتحرك فيها مشاعر وانفعالات الكراهية، والسخط، والحقد، والحسد الهدام، والانقباض، والحزن المرضي، والخوف من أشياء لا تخيف، والخجل السلبي، والشعور بالذنب غير المبرر، والنفور، والأسي، والغضب، والضغينة، والانتقام، والخنوع، والكِبر، والجبروت، والميل إلى القبح، إلخ. وتسير هذه المشاعر والانفعالات فى مسارات الموت والقوى العدمية الظلامية وقوى الشر والتخلف والعنف والتدمير والإرهاب والحرب، ومعاداة النمو والإبداع.

ويجب بحث الحالة الوجدانية المصرية، طبقا لهذا التصنيف، والنظر: هل يغلب على الوجدان المصرى دائرة الوجود أم دائرة العدم؟ هل المشاعر والانفعالات السلبية الهدامة نسبيا أعلى فى مقابل المشاعر والانفعالات البناءة؟

نحن بحاجة إلى تنمية القدرة على الوعى بالمشاعر والانفعالات والتحكم فيها، وتحرير الوجدان من (مشاعر العدم)، أو على الأقل تغليب (مشاعر الوجود) من النوع الأول التى توجه نحو البناء والإبداع والحضارة، على (مشاعر العدم) من النوع الثانى التى تقود نحو التدمير والإرهاب والاضمحلال الحضاري. نحن بحاجة لوضع أيدينا على الوسائل التى تمكنا من تحرير ملكة الوجدان المصري، وتنفيذها بخطة عمل واضحة.

رابعا-إصلاح طريقة عمل الطاقة الغريزية:

الطاقة الغريزية هى التى تضم المواد الخام لكل أنواع الغرائز، مثل الغرائز الجسدية (الجنس، الطعام، الشراب...إلخ)، والغرائز غير الجسدية (مثل التملك، العاطفة الأبوية...إلخ).

وهى غرائز يشترك فيها البشر كلهم، لكن الاختلاف يأتى من طريقة التعامل مع الطاقة الغريزية؛ فهناك مجموعات بشرية تنظمها بالتقاليد والقوانين، وهذه التقاليد والقوانين تختلف باختلاف الحضارات والبلدان، وأيضا تختلف درجة إعمالها فى الواقع. وهذه ليست قضيتنا الآن، وإنما قضيتنا هى ثقافة التعامل مع الطاقة الغريزية؛ لأن الثقافة هى التى تحدد طريقة عمل الطاقة الغريزية إما تحت قيادة الإرادة العاقلة أو تحت قيادة الرغبات الخالصة.

وليست الغرائز مثل المشاعر والانفعالات يمكن تصنيفها وتقسيمها إلى قسمين منفصلين: مشاعر وانفعالات الوجود والبناء والحضارة، ومشاعر وانفعالات العدم والهدم والتخلف، بل الغريزة الواحدة نفسها يمكن أن تعمل بطريقة للبناء والابداع، ويمكن أن تعمل بطريقة للهدم والتخلف. وهنا يكمن السؤال : كيف يمكن تغيير ثقافة التعامل المصرية مع الطاقة الغريزية لتكون قوة للبناء والابداع أو على الأقل للتحضر تحت قيادة الإرادة العاقلة؟

خامسا-تطوير العقل العملي: يمكن التمييز بين العقل النظرى الخاص بالعُلوم والمعارف النظرية، والعقل العملى الخاص بالسلوك والأخلاق. فالعقل العملى هو الذى يوضح مبادئ السلوك الصحيح، وبه يتم التمييز بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وسلوكيات التحضر وسلوكيات التخلف... (يمكن الرجوع إلى كتابنا: العقلانية والتعصب). وأفهم العقل العملى على أنه أوسع من مفهوم كنط الذى طرحه فى كتابيه (نقد العقل العملي) و(تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق)؛ لأنه يقصد الأخلاق بمعناها الاصطلاحى فقط، بينما أقصد السلوك بعامة؛ لأن هناك منطقة فى السلوك لا تدخل فى الحكم الأخلاقي، مثل إدارة الوقت ونمط الحياة اليومى وطريقة الكلام والاتيكيت...إلخ.

والإشكاليات الحائرة حتى الآن: ما سبب سيادة أخلاق وسلوكيات التخلف التى تحكم التعاملات الإنسانية والتجارية؟ وما السر وراء منظومة التحايل والإهمال وعدم إتقان العمل وغيرها من السلوكيات التى تسيطر على الأفراد وبالتالى تفسد الاقتصاد؟ وكيف يمكن وضع وانتشار منظومة لأخلاقيات وسلوكيات التقدم بوصفها الأساس الذى لا يقوم بدونه أى مشروع تقدمى كبير؟ هل يمكن وضع أجندة للأفعال تحتوى على مجموعة من السلوكيات والممارسات والأساليب التى لا غنى عنها لتحقيق التقدم الحضارى والثقافى والعلمى والسياسى الذى يصنع مجتمع الرفاه والعدل؟

نحن فعلا فى حاجة ماسة إلى فلسفة للفعل والعمل لا للكلمة والنظر، فلسفة للتقدم، ومن ثم فلسفة للأخلاق والسلوكيات، لكنها ليست أخلاق النظريات الفلسفية المجردة، وإنما أخلاقيات قابلة للتنفيذ؛ أخلاقيات لتقدم الشعوب. (يمكن الرجوع إلى كتابنا: أخلاق التقدم).

ومنطقة السلوكيات بعامة، بحاجة إلى مراجعة مثل مراجعة العقل النظرى والدينى والوجدان والطاقة الغريزية. وبطبيعة الحال جميع سلوكياتنا هى نتاج لمجموعة الأفكار الحاكمة لنا، فالأفكار تقود السلوكيات، سواء كانت صوابا أم خطأ، وسواء كانت تصنع الحضارة أم تصنع التخلف. وإصلاح سلوكياتنا لن يكون إلا بتطوير العقل العملى وفق منظومة أخلاق التقدم. والحضارة ليست توهما يتوهمه البعض ممن يظنون أننا الأعلي، بل الحضارة نتائج على الأرض تظهر فى الفنون والعلوم والآداب والصناعة والزراعة والمعاملات اليومية ونمط الحياة. وإذا كانت النتائج على الأرض تُظهر أننا متخلفون عن أمم أخري، فلابد أن نستنتج أننا نفكر بطريقة خاطئة، ونعمل بطريقة خاطئة. والحل أن نبحث عن طريقة تفكير جديدة ونظرة جديدة إلى أنفسنا والعالم، تقوم على ثورة جذرية على كل طرق التفكير التقليدية التى ورثناها من الكتب الصفراء والحواشى والمتون والشروح وشرح الشروح!

تطوير العقل المعرفي المصري

٧ يوليو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

هل نحن في حياتنا نحكم على الأشياء بطريقة عقلانية صحيحة؟ في الواقع لا؛ لأننا نحكم عليها بالاستناد فقط إلى موقف جزئي محدود، كما نحكم للأسف على الناس والأشياء استنادا إلى خبر ظني أو شائعة أو أقوال مرسلة. إننا في الواقع لا نتبع خطوات التفكير الصحيحة من أجل الوصول إلى الحقيقة، بل غالبا نقفز من بعض المعلومات الظنية إلى أحكام كلية يقينية. ونحن غالبا نأخذ من طرف واحد ونحكم على الأمور دون أن نستمع إلى الطرف الآخر. ونحن أيضا لا نتحرى الحقيقة من مصادرها، بل مازلنا نعتمد على المعرفة السماعية لمجرد تداول الناس لها، حتى إن كثيرا من الكُتّاب الذين يمسكون بالقلم يعلقون على كثير من الأخبار المتداولة دون أن يتحروا حقيقتها قبل الكتابة!

هنا وجوب التوقف لتحويل طرقنا السلبية في التفكير إلى الطرق الإيجابية. وليس هذا أمرا مستعصيا؛ لأن معرفة المنهج الإيجابي ليست مستحيلة، والعقل المعرفي يمكن تدريبه على الاستعمال الصحيح، وتنميته بحيث يتم توظيفه للتفكير بطريقة سليمة، من أجل خدمة إرادة النمو والقوة والتشارك، لا إرادة الغضب والهدم والخمول، الأمر الذي يقتضي عدم ترك الفرصة للانفعالات لكي تتحكم في تفكيرنا، واستخدام الطريقة العلمية في حل المشكلات وليس انتظار الوصفات السحرية، والتخلص من الأحكام والآراء المسبقة وأوهام العقل الجمعي المحكوم بغريزة القطيع.

إن العقل المعرفي الذي نرجو إصلاحه وتخليصه من الأمراض المزمنة هو العقل النظري الذي يقوم بعمليات الفهم والادراك والاستنباط، ومعرفة الأمور اللامادية، ومعنى الأشياء، والعلاقات بينها. والعقل المعرفي هو الذي يحدد المبادئ العامة في كل علم. ولذا يقال: إن المعرفة العلمية عقلية، بمعنى أنها تستند إلى العقل في تأويله للملاحظة والتجربة. ويمكن التمييز بين العقل النظري الخاص بالعُلوم والمعارف النظرية، والعقل العملي الخاص بالسلوك والأخلاق، وهو الذي يوضح مبادئ السلوك الصحيح، وبه يتم التمييز بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

والسير في طريق العقلانية يحتم إحكام عمل العقل المعرفي. وفي الحالة المصرية نجد أن العقل المعرفي المصري يتطلب علاجا على أصعدة متعددة، أذكر منها في هذا المقال اثنين:

أولا- إصلاح عمليات الفهم والاستدلال والإدراك وإنتاج المعرفة واستخدامها وطرق حل المشكلات. وفي ظني أن هذا العلاج سوف ينشأ عنه تغيير في السلوك.

إن عمليات الاستدلال العقلية لابد أن تحكمها قواعد محكمة للتفكير، منها أن الأحكام التي تصدر على الظواهر لابد تكون (كلية)، بحيث تشمل القضية جميع الحالات الجزئية، و(ضرورية) بحيث تلزم النتائج عن المقدمات لزومًا ضروريًا. ويجب أن تكون المقدمات يقينية وليست ظنية، ومن مصادر معلومات متنوعة وذات مصداقية، وعدم الاستنتاج السريع، وعدم القفز إلى النتائج باستدلال ضعيف، وعدم الأخذ بالعلاقة الظاهرية بين المقدمات والنتائج، إلخ. مثل قضية «كل المعادن تتمدد بالحرارة»؛ فهي كلية لأنها تشمل جميع الحالات الجزئية أي جميع المعادن، وهي ضرورية لأن النتيجة «التمدد» تلزم عن المقدمة «الحرارة» لزومًا ضروريًا لا يخضع لأي استثناء، فأي معدن في الدنيا إذا تعرض للحرارة لا بد أن يتمدَّد.

وفي الواقع أن الأغلبية في الدول غير المتقدمة لا تستخدم هذه الطريقة في الاستدلال، ولا تصبر أصلا على قراءتها وفهمها. وعندما تراجع أحكام الناس في الفضائيات والإذاعة وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، فسوف تجد أنها كشفتنا على حقيقتنا، حيث تجد ما أشرنا إليه مرارا في مقالات وأحاديث سابقة من سرعة الكثيرين في إصدار الأحكام، والانسياق وراء الأخبار الكاذبة، والفهم المغلوط لكثير من الأحداث، والتركيز على القشور، والحكم على أي شيء بجزء منه! ولا يكلف أي شخص نفسه بالبحث على محركات البحث (وهي على أطراف أصابعه) عن حقيقة أي خبر ومصدره. إننا أمام كارثة حقيقية في طريقة الفهم والتعامل مع الأحداث والظواهر والمواقف! ووسائل التواصل الاجتماعي ما هي إلا «مرآة» كشفت طريقتنا في الحياة وطريقتنا في التفكير والاستدلال والحكم على الأشياء؛ مما يكشف عن خلل في العقل المعرفي.

ثانيا- حتمية تغيير المفاهيم، والتصورات، والنماذج والتمثلات الذهنية، وبنية المعرفة والحالات الذهنية الداخلية التي تشتمل على الفكرة والدافع والإيمان وغيرها.

إن النماذج الذهنية الموروثة، وبنية المعرفة التقليدية التي أخذناها من القدماء، والحالات الذهنية الداخلية القديمة التي تشتمل على الفكرة والدافع والإيمان السحري وغيرها، لا تزال عاملة في عقلنا المعرفي، ولا تزال تقودنا في الحكم على الأشخاص والمواقف والظواهر، ولا نزال سريعو النسيان، والطاقة الغضبية كما قلنا من قبل- هي الحاكمة لنا والتي نفرغها في أي شيء، إلخ. ولذا لابد أن يواكب تغيير طرق التفكير حتمية تغيير المفاهيم والتصورات، والنماذج والتمثلات الذهنية، وبنية المعرفة والحالات الذهنية الداخلية الموروثة؛ لأنها أشبه بالعدسات الملونة التي تصبغ الرؤية بلونها. إذن نحن بحاجة إلى عدسات جديدة، لكنها عدسات غير لونة).

تطوير العقل الديني

١٤ يوليو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا أومن بإصلاح العقل الدينى القديم؛ لأن العقل الدينى القديم تشكل فى ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ومعرفية طرحتها العصور القديمة. والأبنية العقلية القديمة تلائم عصورها ولا تلائم عصرنا؛ فالزمان غير الزمان والمكان غير المكان، والناس غير الناس، والتحديات القديمة غير التحديات الجديدة. إننى أحب بيت أبى القديم لكننى لا أحب أن أعيش فيه، وأقدر تراثنا القديم لكننى أحب (أنا وغيري) أن نصنع تراثا جديدا نعيش فيه؛ فهم رجال ونحن رجال، وهم أصحاب عقول ونحن أصحاب عقول. إننى وغيرى كثيرون لا نحب أن نكون فى زمرة القائلين (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا).

وهذا ما سعينا إليه على مستوى الخطاب الدينى فى كتابنا (نحو تأسيس عصر دينى جديد) من أجل تجاوز «عصر الجمود الديني» الذى طال أكثر من اللازم فى تاريخ أمتنا العربية، من أجل تأسيس عقل دينى جديد، وتكوين خطاب دينى من نوع مختلف، وليس تجديد الخطاب الدينى التقليدي، فتجديد الخطاب الدينى عملية أشبه ما تكون بترميم بناء قديم، والأجدى هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة إذا أردنا أن نقرع أبواب عصر دينى جديد يتخلص الإسلام فيه من «الأنسقة المغلقة»، و«الموروثات الاجتماعية»، «قاع التراث»، و«الرؤية الأحادية للإسلام».

إن أبنية العقل الدينى القديم كلها لا تصلح للتجديد؛ لأنها صنعت لعصور غير عصورنا، وقامت على النظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة فى ضوء ظروف العصور القديمة وأنسقتها المعرفية، ولذا من الفرائض الواجبة توجيه النقد الشامل لكل العقول المغلقة أحادية النظرة، سواء كانت إرهابية أو غير إرهابية.

إن كل ما جاء فى التاريخ بعد لحظة اكتمال الدين التى أعلنها القرآن، جهد بشرى قابل للمراجعة، وهو فى بعض الأحيان اجتهاد علمى فى معرفة الحقيقة، وفى أحيان أخرى آراء سياسية تلون النصوص بأغراضها المصلحية المنحازة. وفى كل الأحوال سواء كانت موضوعية أم مغرضة- ليست هذه الآراء وحيا مقدسا، بل آراء بشرية قابلة للنقد العلمي.

ونحن فى أشد الحاجة إلى تكوين عقل دينى جديد يتراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذى كان يحتكر فيه المتعصبون الحقيقة الواحدة والنهائية. إننا فعلا بحاجة لكى نقوم بعملية إبادة حقيقية لعوالم الوهم التى تسيطر على عقولنا؛ ومراجعة لمعتقداتنا المستقاة من المذهب الأشعرى دون أن يدرى الكثيرون! إن الحقائق موجودة فى هذا العالم الواقعى وليست فى الأساطير التى تزال تحكم رؤيتنا للعالم. والحقائق يمكن التوصل إليها فى الآفاق والأنفس بمناهج العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية والاجتماعية، وليس بمناهج ملاك الحقيقة المطلقة. والحقائق هى التى تؤتى بنتائج إيجابية على أرض الواقع، وهى ما ينفع الناس هنا والآن. والفكرة الصواب هى ما تعمل بنجاح فى أرض الواقع.

وإذا تمكنا من الوصول إلى هذه النقطة نكون قد تمكنا من جزء من الإجابة على ذلك الإشكال: كيف يكون التقدم الحضارى ممكنا؟ هنا يمكن معرفة جزء من «روشتة التقدم»، وهنا يمكن للعقل العام المصرى أن يخرج من النفق الطويل المظلم الذى وضعه فيه ملاك الحقيقة المطلقة. وهنا يمكن أن يبدأ تجاوز محطة الأساطير إلى محطة العلم، وتجاوز محطة أوهام التفكير الدينى الرجعى إلى محطة التفكير الدينى بطريقة علمية، وتجاوز محطة أوهام اللاهوت السياسى عند الأصولية إلى محطة العقلانية السياسية، وتجاوز محطة الرجعية الاجتماعية فى نمط الحياة إلى محطة الحداثة الاجتماعية، وتجاوز محطة الاقتصاد الموازى القائمة على الفهلوة إلى محطة الاقتصاد العقلانى القائم على دراسات الجدوى وآليات عمل السوق.

وقد تبين لنا فى المحور الثانى من محاور تطوير العقل المصرى أن العقل الدينى التقليدى يكاد يكون هو الحاكم للعقل المصرى العام. والعقل الدينى ليس هو الدين نفسه فى نقائه الأصلي، بل هو عقل تكون عبر التاريخ، ومحمل بموروثات اجتماعية، ومعتقدات سحرية، وازدواجية قيمية، وحيل مخادعة. وإذا كان الدين فى نقائه الأصلى إلهيا، فإن العقل الدينى هو عقل إنسانى يتكون فى التاريخ وتدخله عناصر إلهية وعناصر اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها ويتأثر بدرجة وعى الإنسان فى كل مرحلة. وتطوير العقل الديني، بما فيه من مكونات لعل من أهمها علم أصول الدين، غير ممكن بدون تفكيكه، وبيان الجانب البشرى فيه. ولعل معارك كثيرة نشأت واستعرت، وتم فيها تكفير الجميع للجميع، بسبب عدم التمييز بين المقدس والبشري، حيث إن البشرى تقنع بأقنعة إلهية خالت على الأغلبية. إن المشكلة ليست فى الإسلام، بل فى عقول المسلمين وحالة الجمود الفقهى والفكرى التى يعيشون فيها منذ أكثر من سبعة قرون، ولذا أكدت فى كتاب (نحو تأسيس عصر دينى جديد) على أن المقدس والبشرى اختلطا فى التراث الإسلامي، واضطربت المرجعيات وأساليب الاستدلال، ولذا من غير الممكن «تأسيس خطاب دينى جديد» دون تفكيك العقل الدينى التقليدى وتحليله للتمييز بين المقدس والبشرى فى الإسلام.

للتجديد دائرة معرفية أخرى

٢١ يوليو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

كل من يعيشون فى الخطاب القديم من الداخل، لن يمكنهم تأسيس عقل دينى جديد أو خطاب دينى جديد، ولا حتى يمكنهم تجديد القديم إلا بالتهذيب أو الاختصار أو الانتقاء أو الشرح، لكنهم فى الجوهر يظلون أسرى القديم فى مناهجه ومفاهيمه وتصوراته، وما التجديد عندهم فى كثير من الأحيان إلا إبعاد لتيار قديم واستدعاء لتيار قديم آخر؛ لأنهم ببساطة ينظرون من الداخل، وحدود رؤيتهم مقيدة بإطار البناء من الداخل، ومحكومة بالمنهجيات التقليدية وطرق التفكير الموروثة والسارية.

ولذا أكاد أجزم على مستوى الخطاب الديني بأن التجديد لا يمكن أن يأتى من المؤسسات الدينية الكلاسيكية فى أى بقعة من العالم إلا اذا كان لديها القدرة على التخارج والتعلم من دائرة معرفية أخري. يمكن أن تحدث هذه المؤسسات تحسينا أو تجميلا هنا أو هناك، ويمكن أن تهدم حائطا وتبنى آخر، لكنها لن تستطيع أن تهدم بناءً كاملا تعيش داخله!

والرأى عندى أنه لابد أن يأتى التجديد من دائرة معرفية خارجية أو قادرة على التخارج، وهذا ما وجدناه فى كل الأنبياء العظام والفلاسفة المبدعين، فإذا راجعت سير الرسل الكبار تجد أنهم حملوا رسائل من خارج الدائرة المعرفية لأقوامهم، وأنهم قبل الرسالة كانت لهم احتكاكات بدوائر معرفية خارجية؛ فالوحى لا يأتى عبثا.

ولنضرب مثلا بالفلاسفة الكبار الذين أحدثوا تغييرا فى طرق التفكير، وعلى سبيل المثال الفيلسوف الإنجليزى هيوم والفيلسوف الألمانى كانط فى ثورتهما الفلسفية لتغيير طرق التفكير، كان مرجعهما من خارج حقل الفلسفة التقليدي، وهو العلوم الرياضية والطبيعية، وهو ما سبق تأكيده فى كتابى (العقل وما بعد الطبيعة) الصادر عام ١٩٩٠ من القرن الماضي؛ والذى تم افتتاح الفصل الأول منه بالتأكيد على تعذر فهم الفلسفة الحديثة دون وضع الثورة العلمية فى الاعتبار، ذلك أن سبب التحول الجذرى فى توجهات الفكر الغربى يظل كامنا فيما قدمه كوبرنيكوس وطوره نيوتن حتى بلغ به أوج نضجه واكتماله.

ولعل أكثر الفلسفات استجابة للثورة العلمية فلسفتا هيوم وكانط، هذان الفيلسوفان اللذان أقاما مشروعهما الفلسفى على أساس التحولات العلمية المنهجية التى شهدها عصرهما؛حيث تنبه كانط إلى أن ثورة كوبرنيكوس فى الفلك لم تكن إلا تغييرا لمنهج التفكير، فقام كانط بثورته الكوبرنيقية من أجل إصلاح الميتافيزيقا أو علم ما بعد الطبيعة من خارجه. أما الفيلسوف الانجليزى هيوم فقد قام برسم صورة واقعية للإنسان والطبيعة والمجتمع ابتداء من عناصر ذاتية خالصة :هى الأفكار، وحاول جعل الميتافيزيقا علما دقيقا عن طريق استرشاده بالمنهج الذى وفق إليه نيوتن فى مجال الميكانيكا السماوية وتطبيقه على دراسة (الذهن البشرى)، وبالتالى السعى إلى الانتقال من أحكامنا الجزئية التى نطلقها على الأشياء إلى مبادئها الأعم. وقد توصل هيوم فى هذا الصدد إلى أن هناك ثلاثة قوانين أصلية أولية تحفظ النظام فى الذهن مثلما يحفظ قانون الجاذبية نظام الكون.

يقول بيير دوكاسيه فى كتابه (الفلسفات الكبري): أما هدف هيوم فإنه ينحصر فى محاولة تحويل الميتافيزيقا إلى علم نيوتوني، وفى الانتقال من أحكامنا الفردية على الأشياء إلى مبادئها العامة.

وكشف كانط النقاب عن ذلك، قال: يدين العلم الطبيعى نفسهفى الثورة النافعة التى أحدثها فى طريقة تفكيره لتلك الفكرة الوحيدة التى تجعل العقل لا يبحث فى الطبيعة إلا عما وضعه هو فيها. ويوضح لنا كانط هذا المعنى بتطبيقه على كشوف جاليليو ونيوتن وتورشيليوشتال. وعلى سبيل المثال هنا، فإن تورشيلى عندما أجرى تجربته لإثبات الضغط الجوى (أو أن للهواء ضغطاً) قد توقع ارتفاع عمود الزئبق فى الأنبوبة بمقدار الضغط الجوي، وهو يعادل ٧٦سم من الزئبق. وقد توقع تورشيلى هذا بناء على ما أجراه من عمليات رياضية قبل أن يشرع فى تجربته. أى أنه استعان فى العلم التجريبى بعلم آخر هو الرياضيات، وهنا يتأكد أيضا فكرة أنه لا جديد إلا بالاستعانة بدائرة معرفية أخري. ولذا لم نكن نعبث فى جامعة القاهرة، عندما وضعنا رؤية استراتيجية لتطوير الجامعة تقوم فيما تقوم عليه على إنشاء التخصصات البينية للقضاء على عزلة التخصصات الدقيقة وفتح المسارات أمام تجديد العلوم لبعضها البعض. وفى البداية كانت هناك مقاومة فى الجامعة، لكن سرعان ما نجحت الفكرة، ونجحنا فى إنشاء العديد من التخصصات البينية، مثل :برنامجا لبكالوريوس فى الحوسبة والمعلوماتية الحيوية، وبكالوريوس الأدوية والمستحضرات الطبية البيطرية، إلخ.

ربما بعد هذا الاستطراد يسأل القارئ: وما علاقة ذلك بتطوير العقل بعامة ، وتطوير العقل الدينى بخاصة؟ وما علاقته بتأسيس خطاب دينى جديد؟ وهنا أعيد القول بأن تأسيس خطاب عقلانى جديد، أو بالأخص تأسيس خطاب دينى جديد، لا يمكن أن يأتى من الذين يعيشون فى دوائر التفكير القديمة، أو دوائر العلوم التقليدية، بل لابد أن يأتى التجديد من دائرة معرفية خارجية أو قادرة على التخارج، وهذا ما وجدناه فى الرسل الذين نجحوا فى الدخول بقومهم إلى عصر جديد، والفلاسفة المبدعين الذين تغير بعدهم الفكر، وكانوا نقطة تحول بين عصرين. وأيضا العلماء الرواد الذين تغير معهم تاريخ العلم.

فإذا أردنا عقلا مصريا جديدا وعقلا دينيا جديدا، فلابد من الخروج من المدار الذى ندور فيه إلى مدار آخر مختلف، وفتح الأبواب والعقول للتمرد على الدوائر المغلقة التى نعيش فيها.

الفن والعقلانية والواقع الممكن

٢٨ يوليو ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إذا وجدت في أمة من الأمم فنونا هابطة منتشرة ولها الغلبة، فاعلم أن الوجدان والعقل الصانعين لهذا الفن والمتذوقين له يعانيان مرضا؛ فالفن أحد تجليات الوجدان والعقل إبداعا أو تذوقا. إن الفن إظهار خارجي لشيء داخلي في مَعْرِض خارجي كما يقول أرسطو. لكن الفن أيضا من وجهة نظري يمكنه أن يغير الدفة ويؤثر من الخارج على الداخل، ويمكنه أن يحرر الوجدان المشوه لقطاعات من الأمة من أمراضها وتشوهاتها. إن القبح الذي يصيب الوجدان مثل الشرك الذي يصيب الإيمان، ومثل الاستعمار الذي يضرب وطنا. وهنا يأتي دور الإبداع الفني الحقيقي الذي يجب أن نفتح أمامه المسارات، في الوقت الذي يجب أن نغلق فيه كل سبيل أمام الفن العشوائي الذي بات يضرب ملكة الوجدان مثلما تضرب العشوائيات الأرض.

وإذا نظرت في فنوننا السائدة لن تجد إلا عشوائية وغيابا للهارموني، ليس في الموسيقى والغناء فقط، ولكن أيضا في السينما والمسرح. وغياب الهارموني يعني غياب العقلانية؛ فالعقلانية لا تغيب فقط عن تفكيرنا، بل تغيب أيضا عن فنوننا. إن التناسب الرياضي أمر لا يخص العلوم الرياضية والطبيعية فقط، كما انه ليس سنة كونية في بنية العالم الأكبر من أول الذرة حتى الكون، بل هو أيضا ما يجب أن يحكم الموسيقى بخاصة والفن بعامة، على الرغم من أن عالم الوجدان هو عالم الحرية، لكن تجليات الوجدان في الفنون يجب ان تخضع للتناسب والهارموني. هذا ما تجده مع المبدعين عبدالوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعمر خيرت وبليغ حمدي والسنباطي وغيرهم.

ومن أكبر علامات العشوائية في الأغاني والموسيقى التي صعدت في عصرنا مع مطربي العشوائيات التي تسيّدت أذواق معظم الطبقات، غلبة الموسيقى الشفهية، وغياب موسيقى النوتة المكتوبة؛ ومن ثم غياب التناسب الرياضي بوصفه جوهر العقلانية. ويستطيع الفن أن يقود المجتمع نحو العقلانية والانتقال من النموذج اللاهوتي والميتافيزيقي إلى مرحلة النموذج العقلاني، كما أكد ماكس فيبر في كتابه (الأسس العقلانية والسوسيولوجية للموسيقى)، عندما تحدث عن الانتقال من مرحلة الميتوس إلى مرحلة اللوغوس.

وهذا دور الطبقة الوسطى، لكن أين الطبقة الوسطى الآن؟ لقد هزمت ثقافة وفنون الطبقات الدنيا فنون الطبقة الوسطى القديمة، بل هزمت ثقافة وفنون طبقة النخبة، وسيطرت على معظم الأذواق! وأصبح لها الغلبة على الحياة الاجتماعية والعلمية والفكرية. والغريب أنك يمكن أن تجد دفاعا عن السينما الهابطة والقميئة عند بعض القيادات الثقافية والفنية، فذات مرة كنت أناقش أحدهم فيما وصلت إليه السينما فقال لي بملء فمه: إن الفن يعكس الواقع، مدافعا عن ذلك المنتج لأفلام ثقافة العشوائيات الذي أفسد أذواق الناس، بل وشوه ثقافة وأخلاقيات قطاع كبير من الشباب. فقلت له: إذن معنى الفن قد غاب عنك، وأيضا معنى الواقع قد غاب عنك. أما الواقع فليس هو فقط قبح ثقافة العشوائيات، بل هو أيضا جمال ثقافات بقاع اجتماعية أخرى، فلِمَ تجتزئ الواقع في ثقافة طبقة أو قطاع واحد؟! وأما غيابُ معنى الفن عندك؛ فلأنك تظن أن الفن محاكاة، في حين أن الفن طريقة لخلق عالم جديد أو إعادة بناء للعالم، والفن لو كان دوره هو نقل الواقع لصار تقريرا تسجيليا وليس فنا! والواقع المنقول كما هو لا يصنع عملا فنيا. وحتى الموضوع الجميل في الواقع لو نقلته دون تدخل إبداعي لن يكون موضوعا فنيا جميلا بل سيكون مجرد تسجيل حرفي.

وفي الحالات التي يكون فيها الفن محاكاة، فإنها لا تكون محاكاة مجردة، بل محاكاة منقحة، أو حسب رؤيتي إعادة بناء لعناصر العالم وأداة لتحرير الوجدان من القبح والحزن والألم والإحباط. وحتى عندما يتخذ الفن من القبح موضوعا، فإنه يعبر عنه بشكل جمالي لا يقل عن التعبير الجمالي عن الموضوع الواقعي الجميل. فالفنان موريلو رسم الشحاذين في لوحة بديعة، ورسم الحسناوات العذارى في لوحة بديعة أخرى، ولا تقل إحداهما عن الأخرى جمالا فنيا، على الرغم من أن موضوع إحداهما قبيح وموضوع الأخرى جميل، لكن القبح في الواقع تم التعبير عنه تعبيرا فنيا إبداعيا، ولو كان الفن مجرد انعكاس للواقع، ولو كان موريلو طبق هذه النظرية، لما كان قدم لنا عملا فنيا جميلا، بل كان قدم لوحة تعكس الواقع كما هو، وبالتالي كان مصيرها مصيرا آخر غير مصير الإبداع الفني.

وأيضا عندما يتناول الفن موضوعا عاديا في الواقع يحوله إلى موضوع جمالي. فهل إذا نظرت للحذاء المتهالك في الواقع سوف تشعر بأى قيمة فنية؟ أكيد لا ، بل سوف تتمنى شراء حذاء جديد! لكنك إذا نظرت إلى لوحة الحذاء للفنان فينسنت فان جوخ، فسوف تشعر بالجمال الفني. فهل الحذاء في الواقع هو ذلك الحذاء في اللوحة العبقرية؟ أكيد لا . وهذا ما غاب عن تلك القيادة الثقافية الفنية التي غاب عنها معنى الفن مثلما غاب عنها معنى الواقع. وهذا أحد جوانب مأساة الإبداع الفني في مجتمعنا المصري المعاصر.

إن الفن ليس هو الواقع الفعلي، وإنما هو إعادة بناء للواقع أو خلق لواقع بديل. والواقع في الفن الحقيقي ليس هو الواقع الفعلي بل هو الواقع الممكن. وهنا دور العقلانية في التحول من المنتَج العاكس للواقع الفعلي إلى الفن الصانع للواقع الممكن الذي يخضع للتناسب الرياضي والهارموني. وإذا استطعنا أن نحقق ذلك فإننا نكون قد تمكنا من الانتقال من النموذج العشوائي إلى نموذج الهارموني، والتحول من النموذج اللاهوتي والميتافيزيقي إلى النموذج العقلاني، ليس في الفن فقط، وإنما في الحياة أيضا.

الفن وتحرير الوجدان المصري

٤ أغسطس ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

كالعادة لا توجد تعريفات مجمع عليها للوجدان في تاريخ الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية. وإجرائيا فإني أستخدم الوجدان بمعنى يتسع للمشاعر والانفعالات. والعلاقة بين العواطف والانفعالات من جهة والأفكار من جهة أخرى هي علاقة ديالكتيكية، أي يؤثر كل منهما في الآخر.

وعند فحص الوجدان المصري أو العربي، يمكن توزيع مشاعره وعواطفه وانفعالاته بين دائرتين: الأولى- دائرة الوجود، والثانية- دائرة العدم. وتتحرك في دائرة الوجود مشاعر وانفعالات الحب، والرضا، والاطمئنان، والسعادة، والفرح، والرحمة، والغبطة (الحسد البناء)، والجسارة، والتصالح مع النفس، والإباء، والتواضع، وعزة النفس، والكرامة، والشعور بالجمال، إلخ. وهذه الدائرة بها مسارات الحياة والنور، ومدارات الحضارة والإبداع وتحقيق الذات والسمو. ويمكن أن نقول إن مشاعر وانفعالات الدائرة الأولى هي (مشاعر وانفعالات البناء) المحبة للحياة.

أما دائرة العدم، فتتحرك فيها مشاعر وانفعالات الكراهية والقبح والسخط، والجبروت، والحقد، والحسد الهدام، والانقباض، والحزن، والخوف، والخجل السلبي، والشعور بالذنب، والندم، والنفور، والأسى، والغضب، والضغينة، والانتقام، والخنوع، والكِبر، والميل إلى القبح، إلخ. وهي تسير في مسارات الموت والقوى العدمية الظلامية وقوى الشر، ومدارات التخلف والعنف والتدمير والإرهاب والحرب، ومعاداة النمو والإبداع. ويمكن أن نقول إن مشاعر وانفعالات الدائرة الثانية هي (مشاعر وانفعالات الهدم) المعادية للحياة.

وفي الحالة المصرية والعربية، يمكن أن تلاحظ عند عدد من القطاعات غلبة المشاعر والانفعالات السلبية الهدامة نسبيا في مقابل المشاعر والانفعالات البناءة. ويمكن أن تجد من يحدثك عن أن كثيرا من المصريين والعرب تغلب عندهم مشاعر الحزن، وأنهم يخشون الفرح، وعند حدوث ابتهاج يقولون «اللهم اجعله خيرا»، وكأنه يعتبر الابتهاج نذيرا لحدوث مكروه! ويمكن أن ترصد بكل بساطة جماعات التطرف وكيف يسيطر عليها الغضب، والكراهية، والسخط، والحقد، والضغينة، وروح الانتقام. كما يمكنك أن ترصد الخوف، والخنوع، عند قطاعات أخرى. أما القطاعات العشوائية، فيمكن أن ترصد عندها انعدام الذوق الفني وانحطاط الحس الجمالي والميل إلى القبح في الغناء والدراما. وأنا لا أقصد بالقطاعات العشوائية الطبقات الشعبية، فالعشوائية امتدت من أسفل إلى أعلى مع الحراك الاجتماعي السريع والذي لم يواكبه حراك ثقافي طبقي.

ومن وجهة نظري دوما أن «مبدأ الإزاحة» فعال جدا في كل شيء، فإذا كنت ترغب في القضاء على القبح، فالحل هو أن تنشر الجمال، وإذا أردت أن تقضي على الكراهية فانشر المحبة. وقد طبقت هذا المبدأ قديما في الأنشطة الطلابية بجامعة القاهرة، عندما كنت مستشارا ثقافيا للجامعة من سنة ٢٠٠٢م حتى سنة ٢٠١٣م ، كانت الخطة هي القضاء على التطرف بنشر العقلانية، والقضاء على القبح بفتح المسارات أمام الذوق والإبداع الثقافي والفني الرفيع من خلال أنشطة الأدب والغناء والموسيقى والمسرح والابتكارات العلمية وغيرها. وهو ما نمارسه الآن في جامعة القاهرة على نحو أوسع وأعمق دون ضجيج إعلامي، وقد جاءت النتائج سريعة ليس فقط على مستوى التذوق الفني، بل أيضا على مستوى الإبداع الفني؛ حيث اكتسحت جامعة القاهرة مسابقة إبداع التي تقيمها وزارة الشباب والرياضة بين كل الجامعات والمعاهد المصرية العامين الماضيين، وفازت بعدد غير مسبوق من الجوائز كما فازت بالدرع العام.

وعندما فعلنا ذلك كان في ذهني مقولة نيوتن (إن الطبيعة لا تعرف الفراغ)، ومن ثم يجب علينا ألا نترك الساحة مفتوحة أمام القبح والتطرف، فإذا شغلنا الساحة بالجمال والعقلانية، لم يعد هناك أي فراغ يشغله القبح أو يشغله التطرف. وأنا شخصيا كنت دوما أتغلب في حياتي النفسية الخاصة على المشاعر السلبية، لا بالتفكير فيها، ولكن بصرف الذهن إلى المشاعر الإيجابية وتنميتها. وقد نجحت في هذا على المستوى الشخصي إلى حد كبير على مستوى الشعور بالحزن والشعور بالسعادة، ومستوى الشعور بحب القبح الفني والشعور بحب الجمال الفني، ولو لم يوفقني الله في هذا لكنت إنسانا حزينا بامتياز، ولكنت محبا للفنون العشوائية التي صارت طافحة في كل مكان. واكتشف مؤخرا رأي سبينوزا المدعم لهذا المبدأ عندما ارتأى أن نحارب العواطف السلبية بعواطف أقوى لكن إيجابية.

وتجربتي الشخصية مع الفنون، بدأت مبكرا في الطفولة، فقد كان عندي شغف بالسينما، وكان من طقوسي في الابتدائية أن أذهب إلى السينما كل أسبوع منفردا أو مع صديقي الطيب في المدرسة والمحب أيضا للسينما. وكانت السينما بالنسبة لي في هذه المرحلة نوعا من المتعة، مثلها مثل مشاهدة الفنون الشعبية وفنون السيرك وعروض المسرح وغيرها. لكن كان هناك شيء ما في السينما أكثر من ذلك، وهو إشباع الشغف باكتشاف الحياة من خلال تجارب الآخرين التي تحكيها الأفلام، وأيضا بحثا عن البطل، وبحثا عن تحقيق العدالة المفتقدة في الواقع لكن المتحققة في الروايات السينمائية عندما كانت السينما المصرية لا تنتهي أفلامها إلا بضبط ميزان العدالة في آخر الفيلم.

لكن في مرحلة أخرى، كنت أذهب إلى السينما أو المسرح عندما تواجهني أزمة أو إحباط أو عقبات أو حزن. ولا أدري لماذا في كل مرة أخرج من السينما أو المسرح ولدي قدرة جديدة على مواجهة الحياة. فقد كانت تجربة المشاهدة تحررني من المشاعر والانفعالات السلبية، وتغلب عندي الطمأنينة على الحزن، وتزيد إيماني بالواقع الممكن في مقابل الواقع الفعلي. ربما كان يحدث هذا بسبب قصدية الوعي نحو موضوع آخر، أو بسبب ازدياد الأمل في غلبة الخير على الشر، أو كقوة دافعة للتغلب على عقبات (هيرا)! وكأن حل عقدة الفيلم بمثابة حل عقدة المرحلة بالنسبة لي. وربما كان ذلك بسبب أن الفن يحرر الوجدان من أدرانه. وربما لأن الفن يساعد الإنسان على إعادة بناء العالم في المخيلة عوضا عن العالم الواقعي المحبط! أو ربما يقدم للإنسان سيناريوهات ممكنة لمواجهة الواقع والتغلب سواء على عقباته أو تحدياته.

الفن والعقل الديني ومعارك الكراهية

١٣ أغسطس ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«انحدار الفنون ليس نتيجة الوجدان المريض فقط، بل أيضا نتيجة غياب العقلانية؛ لأن الفن ليس نتاج الوجدان وحده، حيث يتدخل التفكير في عملية الإبداع، فالتفكير يقوم بدور في نقل الطاقة الفنية من الوجدان إلى التحقق الخارجي. وعندما يقوم التفكير العقلاني بدوره في صناعة العمل الفني، نجد الإبداع الفني متحققا في الخارج طبقا لقيم التناسب الهارموني والرياضي. وعندما يغيب التفكير العقلاني نجد الفنون محكومة بالعشوائية وغياب التناسق والانسجام والإيقاع. ويتوزع الجمهور بين طائفتين من المتذوقين: طائفة محبة للتناسق والانسجام والإيقاع، وطائفة تستمع بالعشوائية والنشاز وغياب الإيقاع. لكن المفارقة في بعض قطاعات المصريين والعرب أنهم يستمتعون بمنتجات شعبان عبد الرحيم ورفاقه في الوقت نفسه الذي يستمتعون بفن عمر خيرت!

ويلعب الفن دورا جوهريا في تنمية المشاعر من أي نوع. وبناء على نوعية المحتوى والشكل يمكن للفن أن يرتقي أو يهبط بالنوع الإيجابي، وأيضا يمكنه أن يدعم وينمي النوع السلبي. فالفن يمكن أن ينمي المشاعر المحبة للحياة، والجسارة، والتصالح مع النفس، والإباء، والتواضع، وعزة النفس، والكرامة، والشعور بالجمال، وتحقيق الذات والسمو. والفن قد ينمي مشاعر العدم، وانفعالات الكراهية، والسخط، والجبروت، والحقد، والغضب، والضغينة، والانتقام، والميل إلى القبح، إلخ. ومن ثمَّ يكون وقودا لمعارك الكراهية التي تقودها القوى العدمية الظلامية المعادية للحياة التي ترفع لواء العنف والتدمير والإرهاب والحرب في معارك الأيديولوجيات.

ومن هنا فإن ملف الفنون من أهم الملفات التي يجب أن تقوم عليها الدولة الوطنية، والمسألة ليست مجرد متعة وترفيه وإرضاء جمهور يترك أسوأ ما فيه من نوازع همجية تقوده، بل جزءًا لا يتجزأ من عملية بناء المواطن الفعاَل. وللسير في هذا الاتجاه، أتصور أن تنمية «الحس الجمالي الفني» له دور كبير، فالفن الراقي والمتسامي بالغرائز يحرر الوجدان، وينمي الشعور بالإبداع. والفن الهابط يعكس قوى التوحش والعشوائية، وينزل إلى أحط ما فينا.

ومن ناحية أخرى، يجب بالتوازي إعادة بناء المعتقدات الدينية لكي تنمي مشاعر الحب، والرضا، والغبطة (الحسد البناء)، والبهجة، والفرح، والاطمئنان، والجسارة، والتصالح مع النفس، والإباء، والتواضع، وعزة النفس، والكرامة، والشعور بالجمال إلخ. وهي كما ذكرنا من قبل -مشاعر الانفتاح على الحياة والنور وقوى الحب والخير، وتتحرك في دوائر الحضارة والإبداع وتحقيق الذات والسمو.

وفي المقابل، يجب توظيف الفن الإبداعي لا العشوائي، في تفكيك التيارات والأفكار المتطرفة التي ترسخ الأفكار المشاعر والانفعالات العدمية، وتشجع على الكراهية، والغضب، والضغينة، والانتقام، والسخط، والحقد، والكِبر، والميل إلى القبح، إلخ. وهي كما ذكرنا من قبل أيضا – مشاعر العدمية والظلامية المعادية للإبداع، والتي تتحرك في دوائر قوى الموت والعنف والتدمير والإرهاب والقبح. وهنا يجب عدم مرور هذه الفقرة دون الإحالة على وحيد حامد الروائي والسيناريست النموذج الذي يجب استنساخه في هذه المعركة.

هكذا وجدنا أنفسنا، ونحن نتحدث عن الفن والوجدان والشعور بالجمال، نعود إلى معارك الأيديولوجيات الإرهابية، كما وجدنا أنفسنا في قلب إشكالية تطوير العقل الديني؛ فالعقل الديني التقليدي حوّل الدين النقي الأصلي إلى دين حرب في معارك الكراهية. ووظيفة العقل الديني الجديد أن ينتصر في معركة التأويل، حتى يعود الدين إلى نقائه الأول كدين سلام مع النفس ومع المجتمع ومع العالم، لكنه ليس دينا للخنوع، بل دينا حضاريا للبناء لا يقبل بالمهانة ولا الانكسار، دين للحياة لا للتوحش، دين للإنسانية لا للعنف المقدس، دين الرحمن الرحيم المبدع رب العالمين، لا دين التكفير والإرهاب والقبح والاقصاء.

إن الفن يلتقي مع الدين لأن كليهما يتعامل مع الوجدان، مع الروح. ومثلما هناك معتقدات دينية خاطئة يحملها العقل الديني الضال، فإن هناك فنا عشوائيا يحمله الوجدان الاجتماعي المريض.

ولن تجد وجدانا مريضا تحمله روحٌ مطمئنة، ولن تجد إرهابيا يحب الجمال الفني، ولن تجد متطرفا يتمتع بصفاء الوجدان. وإنما سوف تجد عداءً للجمال الفني ومعركة زائفة ضد الأعمال الفنية، وكأن أعداء الإنسانية هم في الوقت نفسه أعداء للإبداع الفني!

كما سوف تجد عند النظر في مسرح العالم الإنساني، أن الوجدان المريض ليس قرينا فقط للروح المضطربة، بل قرينا أيضا لعقل مغلق. والوجدان المريض والروح المضطربة والعقل المغلق، كلها ثلاثة أضلاع لمثلث واحد يضم بين جنباته طاقة غضب وضغينة وانتقام، تمثل الوقود لكل معارك الكراهية التي يخوضها المتطرفون من كل فصيل في الدين أو في الفن أو في السياسة.

نحن بحاجة ماسة إلى الانتقال من معارك الكراهية إلى معارك العيش المشترك والتنمية الشاملة، وليس هذا ممكنا فقط بتحرير الوجدان من طاقة الغضب والضغينة والانتقام وسائر مشاعر الهدم، بل بإعادة بناء الوجدان لتغليب مشاعر البناء والحضارة والشعور بالجمال، على مشاعر التدمير والاضمحلال الحضاري والقبح. ولا يجب الاستهانة بدور الحس الجمالي إبداعا وتذوقا في هذا السياق. وفي الوقت نفسه تحرير الروح بتأسيس خطاب ديني جديد لاستنقاذها من الظلمات التي تسبح فيها عبر محيط اجتماعي لُجِّيٍّ مضطرب. وبالتوازي تطوير العقل لكي يتخلص من طرق التفكير القديمة وينتهج طرق تفكير جديدة تساعد فيما تساعد على تنمية القدرة على الوعي بالمشاعر والانفعالات والتحكم فيها وقيادتها من دوائر الكراهية والقبح الفني إلى دوائر التنمية والجمال الفني».

الفن: من تطهير الوجدان إلى تطهير الواقع

١٩ أغسطس ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«الفن المعبر كلية عن الواقع ليس فنا حقيقيا، بل عملا تسجيليا. إن الفن الإبداعي يصنع واقعا ممكنا بديلا، وقد ينتصر هذا الواقع الممكن للشر ويتعاطف مع قيم الانحطاط، وقد ينتصر للخير في معركة الشر، وللجمال في معركة القبح. وهنا دورنا في صناعة واقع ممكن جميل عسى أن يتحول يوما ما إلى واقع فعلي معاش. إن الفن المصري في العقود الأخيرة صنع واقعا ممكنا بالغ القبح، وللأسف تحول هذا الواقع الممكن إلى الواقع المعاش. فالفن يؤثر تأثيرا بالغا على حياة الناس؛ لأن التجربة الفنية التذوقية تقوم على التعاطف الرمزي، وفي أحيان أخرى على التقمص أو المحاكاة الباطنية.

إن الفن يجب أن يقود عملية تحرير الوجدان من المشاعر والانفعالات العدمية، ودعم المشاعر المحبة للحياة؛ حتى نقضي على أحد أهم منابع وقود معارك الكراهية في صراع الايديولوجيات. ولا تقتصر عملية التحرير على «التطهير» بالمعنى الذي قصد إليه أرسطو في كتابه (فن الشعر) عندما عرف الفن بأنه عملية تطهير. فالتحرير الذي نقصده ليس فقط تخلصا من انفعالات الشفقة والخوف أو حتى غيرها، بل هو دعم أيضا للمشاعر الإيجابية، أو هو بتعبير أدق «إعادة بناء للوجدان». ومن ثم فهو ليس علاجا فقط، بل تنمية لمشاعر الإبداع من الخارج إلى الداخل، من العمل الفني إلى الوجدان. ثم تنمية لمشاعر الإبداع من الداخل إلى الخارج، من الوجدان إلى تغيير الواقع المعاش.

وهنا تبرز أمامنا أحد أهم الوظائف التي يجب أن يقوم بها الفن، وهي «تطهير الواقع». وبهذا المعنى يلتقي الفن الإبداعي مع الروحانية الصوفية في مسارها الإيجابي لا مسارها السلبي المتقوقع والمنعزل. وبهذا المعنى أيضا يلتقي الفن الإبداعي مع النزعة الدينية في مسارها العقلاني المنفتح على الحياة، وليس مسارها المتعصب المنغلق الداعم لقوى الموت، وليس كذلك مسارها الآخر القائم على تخدير الوجدان وتغييب العقل.

لا يجب أن نستهدف إنسانا مثاليا كاملا، فقوى الحب والكراهية، وقوى الإبداع والهدم، والخير والشر، والحضارة والانحطاط، يبدو أنها ثنائية كونية وإنسانية، لكن إلى أي جانب ننحاز في هذه الثنائية التي لا تنفك؟ وإلى أي صف نقف من أجل تغليب إحداهما على الأخرى ونموها وانتشارها؟ إنه ديالكتيك قدري يعيش فيه الإنسان، لكنه بعقله وإرادته قادر على تغليب طرف على الآخر. وبمقدار غلبة الطرف الأول يكون التحرك على المسارات المتدرجة للحضارة والتقدم والتمدن، وبمقدار غلبة الطرف الثاني يكون التحرك على المسارات المتدرجة للاضمحلال الحضاري والتخلف والتوحش.

وقد أوضح سبينوزا في كتابه (الأخلاق) أنّ الانفعالات السلبية لا يمكن القضاء عليها وقمعها، لكن يمكن إخضاعها والتقليل منها بانفعالات إيجابية أقوى منها. ومن هنا فإني أرى أنه يجب علينا أن نعمل على تقوية الوجدان المعاكس، مثلا إذا كان الشعور بالكراهية يسيطر عليك، فركز في الشعور بالتسامح. أما الخوف فتتغلب عليه بتنمية مشاعر الشجاعة، فإذا كنت خائفا فلا تركز في الشعور بالخوف بل ركز في الشعور بالشجاعة. والحزن نتغلب عليه بتنمية مشاعر السعادة أو الفرح...إلخ.

إن الفن يلعب دورا كبيرا في هذا، على الأقل عن طريق العدوى للمتذوق، كما أن عملية التقمص اللاإرادية التي يقوم بها المشاهد للسينما أو القارئ للرواية والشعر أو المستمع للموسيقى والغناء أو المشاهد للوحة فنية إلخ، تدفع المتذوق لإعادة إنتاج ما تقمصه في الواقع بطريقة أو أخرى، إلا في حالة (التعالي)، وهي لا تحدث إلا عند من يمتلكون الوعي الذاتي. لكن التيار الأغلب أن العمل الفني يُحدث حالة من إيقاف مسار التفكير العادي ويؤدي إلى الاستغراق في العمل الفني ذاته؛ حيث ينتزع المتذوق من عالمه العادي، وتحدث حالة من التقمص أو المحاكاة الباطنية، وهذا يظهر بوضوح أكثر في معايشة العمل السينمائي أو المسرحي أو الغنائي. وهنا الخطورة عند الذين لا يملكون وعيا ذاتيا فيتعاطفون مع البطل حتى ولو كان شريرا بسبب عملية التقمص أو المحاكاة الباطنية أو عل الأقل التعاطف الرمزي؛ مما يحدث نوعا من التأثر الوجداني أو العدوى اللاشعورية؛ ولذا قد يصل الأمر إلى الامتزاج الانفعالي والروحي في المشاعر والرغبات، بل ربما التفاعل البدني الذي قد يظهر في الحركات الجسدية عند المشاهدة أو الاستماع، مثل حبس الانفاس أو رد فعل بعض الأعضاء الجسدية.

ونحن هنا أمام حلين إزاء التأثير السيء للعمل الفني السيء، إما أن نسد المنافذ أمام الفن السيء ونصنع فنا جميلا بديلا ونستغل عملية التقمص والمحاكاة الباطنية والتعاطف الرمزي في تصدير قيم الجمال إلى الوجدان الجمعي، وتحويل الواقع الممكن البديل إلى واقع معاش، وإما أن نرفع درجة الوعي الذاتي في العقل الجمعي لتنمية حركة (الوعي المتعالي) تجاه العمل الفني حتى يكون لهذا العقل نفوذ في إدارة الأفكار والمشاعر والانفعالات. ولا شك أن تدريب العقل الجمعي على ذلك ليس أمرا سهلا، لكن يمكن الوصول إليه بمزيد من التربية الجمالية والإصرار والمثابرة والمحاولة والخطأ ثم إعادة المحاولة. وبطبيعة الحال يمكن أن نأخذ بالحلين معا.

إن الفن هو البعد الغائب في عملية الإصلاح، ويجب أن نتوقف عند ملفه وقفة استراتيجية كبرى؛ فدور الفن أكبر من أن يكون للمتعة والترفيه، وأكبر من أن يكون تطهيرا للوجدان. إن الفن الجميل له تأثير مفصلي في تطهير الواقع، وتحويل الواقع الممكن إلى واقع معاش».

إصلاح الغرائز (١)

٢٢ سبتمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«إننا نعاني نوعا من الانفصام بين ثقافتنا المكتوبة وبين الثقافة الحاكمة لطريقة حياتنا الفعلية، نعاني انفصاما بين معتقداتنا وأفعالنا. إن ثقافتنا باتت ثقافة مريضة بحالة من الانفصام منذ زمن. وقد انتشرت أعراض هذا المرض في كل شيء. إن ما هو نفسي غير منفصل عما هو عقلي، ومثلما مرضت النفس مرض العقل النظري كما مرض الوجدان، وتحولت الطاقة الغريزية العليا إلى طاقة للغضب والتوحش. وانعكس كل هذا على الحياة الاجتماعية كما انعكس على الحياة الاقتصادية. وفي الوقت نفسه أصاب هذا المرض طريقتنا في إدارة أنفسنا، وبات عقلنا العملي منتجا لسلوكيات متناقضة مع كل ما نظن أننا نعتنقه من منظومات قيمية يضعها العقل الديني.

ومن أكبر مظاهر سوء إدارتنا لأنفسنا، ذلك العقل المريض الذي يحكمنا في إدارة الطاقة الغريزية. لقد سبق أن أوضحنا في مقالات سابقة أن إصلاح العقل العام المصري أكبر من مجرد إصلاح العقل النظري؛ حيث إن العقل العام يضم: العقل النظري، والعقل الديني، والوجدان، والطاقة الغريزية، والعقل العملي. وإصلاح العقل النظري هو نقطة جوهرية في الإصلاح؛ لأن العقل النظري هو الذي يقود كل عمليات الإصلاح الأخرى الواجبة في العقل العام. وإن نجحنا في تطوير العقل النظري وتغييره تغييرا حقيقيا، فسوف يتغير العقل العام، ومن ثمَّ سوف يتغير الوعي. إن أية عملية إصلاح لن تنجح بدون أن يملك العقل النظري من الوعي الذاتي القدر الكافي، ولن تنجح بدون أن يكون لدينا الإرادة لكي يقود العقل النظري سائر الجوانب: (المعتقدات، والوجدان، والغرائز، والسلوك). أما لو تركنا العقل النظري مريضا، فسوف تفشل عربة الإصلاح في الانطلاق؛ لأن العربة لا يمكنها التحرك دون قائد، والقائد هنا يجب أن يكون العقل النظري السليم. كما أن عربة الإصلاح سوف تضل الطريق لو تركنا للوجدان أو الغرائز القيادة العامة. لأننا ببساطة سوف نتحول إلى كائنات هشة غير عاقلة وغير حرة، مثل أية كائنات غير عاقلة. وهذا وضع كل الشعوب التي تخلفت عن ركب التقدم؛ وهذا هو الفرق بين الإرادة الحرة القائمة على العقلانية وبين الإرادة المنفلتة التي تقودها الغريزة أو يقودها الوجدان.

إذن يجب أن يشمل تطوير المصري الجوانب الخمسة الحاكمة له تطويرا عقلانيا نقديا بطريقة منظمة، وهي: تطوير العقل النظري، وتطوير العقل الديني، وتحرير ملكة الوجدان، وإصلاح طريقة عمل الطاقة الغريزية، وتطوير العقل العملي.

واليوم نقف عند إصلاح ثقافة إدارة الطاقة الغريزية كمدخل للإصلاح العام. والطاقة الغريزية هي التي تضم المادة الخام لكل الغرائز، مثل الغرائز الجسدية (الجنس، الطعام، الشراب، إلخ...)، والغرائز غير الجسدية (التملك، العاطفة الأبوية، إلخ...). وهي غرائز فطرية موروثة، يتحدث العلماء عن كونها عمليات مخزنة في الجهاز العصبي المركزي، وأنها منظومة من الخطوات والعمليات البسيطة المتتابعة في سلسلة متوالية، كل منها يؤدي إلى الأخرى، وهي متشابهة لدى أفراد النوع الواحد، وتعمل دون وعي ذاتي عند الفرد، حتى أن أي حيوان يحكمه ما يسمى بـ (حماقة الغريزة)، فهو يسير وراء غريزته دون أن يفكر في نتائجها المترتبة عليها. ويمكنك أن تقول ذلك أيضا في الكثير من البشر، حتى في الممارسات المشروعة، فالبعض يمارس الجنس من أجل متعة إشباع الغريزة بينما هدف الغريزة نفسه هو الإنجاب واستمرار النوع.

وتعمل الغرائز بطريقة واحدة ولها ثقافة واحدة إن صح التعبير-في أفراد كل نوع من أنواع الكائنات عدا الإنسان. ففي الفيلة أو الخيل مثلا تجدها متشابهة ومتشاكلة، لكن عند الانسان تختلف طريقة التعامل مع الطاقة الغريزية باختلاف ثقافة إدارة الغرائز بين الشعوب وربما بين الطبقات. وعند الحيوانات جميع الغرائز يمكن إشباعها، لكن عند الانسان ربما تجد أفرادا لا يمكن إشباع بعض غرائزهم، مثل غريزة التملك التي ربما لا يشبع غريزة البعض تملك الأرض بما عليها! وأيضا غريزة حب الذات عند النرجسيين قد تدفع البعض إلى تدمير أي شخص يتعارض مع نرجسيتهم، أو يعيق نظرية «الأنا وحدي» التي تحكمهم، وينسون دوما أن السماء تتسع لنجوم كثيرة!

والغرائز على مختلف أنواعها هي غرائز يشترك فيها البشر كلهم، لكن الاختلاف يأتي من طريقة التعامل مع الطاقة الغريزية؛ فهناك مجموعات بشرية تنظمها بالتقاليد والقوانين، وهذه التقاليد والقوانين تختلف باختلاف الحضارات والبلدان، وأيضا تختلف درجة إعمالها في الواقع.

وليست الغرائز مثل المشاعر والانفعالات يمكن تصنيفها وتقسيمها إلى قسمين منفصلين: مشاعر وانفعالات البناء، ومشاعر وانفعالات الهدم. بل الغريزة الواحدة نفسها يمكن أن تعمل بطريقة محددة تجعلها في مسارات البناء والابداع، ويمكن أن تعمل بطريقة أخرى تجعلها في مسارات الهدم والتوحش.

وهذه ليست قضيتنا الآن، وإنما قضيتنا هي ثقافة التعامل مع الطاقة الغريزية؛ لأن الثقافة هي التي تحدد إلى أي مدى تعمل الطاقة الغريزية تحت قيادة الإرادة العقلية. وأفضل مدخل لإصلاح الغرائز ليس هو المواعظ، وإنما تغيير نمط الثقافة في إدارة الغرائز. وطبعا لا أقصد حلولا من قبيل الزهد أو الرهبنة أو احتقار الغرائز، فالغرائز عطايا إلهية، لكنها بحاجة إلى وعي وإصلاح حتى تتحول من غرائز للانحطاط إلى غرائز للحضارة، من غرائز للتوحش إلى طاقة خلاقة يمكن أن تتجلى في العملية الإبداعية للفنون والآداب والعلوم، بل وفي الاقتصاد والسياسة!

للحديث بقية».

إصلاح الغرائز (٢)

١ سبتمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«تشترك الشعوب كلها في الغرائز، لكنها تختلف بدرجة ما قد تزيد وتنقص في ثقافة وطريقة التعامل معها. وتتدرج الشعوب في هذه الثقافة على سلم صاعد من درجات متوالية من التوحش إلى التحضر. ومثلما ان التوحش درجات، فإن التحضر درجات. ونؤكد مجددا أن الغرائز عطايا إلهية، مثلها مثل الماء والنار والتفاعل النووي، يمكن استخدام أي منها في الشر والتدمير ويمكن استخدام أي منها في الإبداع ورفاهية البشرية.

إن الغرائز ليست شرا في ذاتها، وليست خيرا في ذاتها، بل طاقة للحياة أو للموت، حسب طريقة التعامل معها وحسب نمط الثقافة.

أختلف كثيرا مع سيجموند فرويد، لكنني لا أنكر إبداعه وإضاءاته في كثير من جوانب العالم الإنساني المظلم في اللاشعور. فرويد أخطأ كثيرا في تعميماته، لكنه أصاب أيضا كثيرا، ويظل له ميزة اقتحام هذا الظلام الدامس في الطبيعة الإنسانية، ولفت الأنظار إلى اللاشعور، لكنه بالغ في عدّه قدرا تكوّن في الطفولة ولا فرار منه! كما بالغ في رد السلوك كله إلى غريزة الجنس، وفي تفسير التاريخ الإنساني عبر اللاشعور! لا شك أن هذا تعسف، لكن ليس الحل هو إنكار أهمية اللاشعور وأهمية الغرائز. خطأ فرويد أنه عدّ الإنسان ذا بعد واحد، وقام برد كل الأبعاد إلى هذا البعد. وفي المقابل، قد وقع في الخطأ أيضا أولئك الذين تطرفوا في إلغاء هذا البعد كلية.

وفي تصوري أن الإنسان ذو أبعاد متعددة نفسية وفوق نفسية، عقلانية واجتماعية، بيولوجية وفيسيولوجية، مادية وروحية. وكل النظريات التي نظرت إلى الإنسان بوصفه ذا بعد واحد لم تدرك الإنسان في كليته الشاملة بعناصرها المتعددة.

لكن هل لأننا نختلف مع فرويد يجب أن نرفضه كله؟ هذه إحدى أهم مشكلات ثقافتنا. إن ثقافتنا لا تزال محكومة بمفهوم قسمة العالم إلى أبيض وأسود، دار السلام ودار الحرب، دار الإيمان ودار الكفر! هذه بنية حاكمة لثقافتنا يجب تجاوزها. وبمناسبة سيجموند فرويد فإن ما نتصور أنه خطأ في نظرياته، لا يجب ألا يمنعنا أن نقبل ما نتصور أنه صواب.

مهما يكن من أمر، فإن فرويد على الرغم من إفراطه في تعميم نتائج حالاته الجزئية على عموم السلوك الإنساني، فإنني أظن أن حديثه عن تقسيم قوى النفس إلى قسمين: قوى الحب (أيروس) وقوى الموت (ثاناتوس)، يجب التوقف عنده في فهم الإنسان؛ فقوى الحب (أيروس) تقود الإنسان نحو آفاق الحب والسلام والحضارة والإبداع. أما قوى الموت (ثاناتوس) فتقود الإنسان نحو الكراهية والحرب والتوحش والعنف.

هذا التقسيم يمكن أن نستفيد منه في حديثنا عن إصلاح الغرائز، فنحن بحاجة لتغليب ثقافة السمو والإبداع معا حتى تتحول لقوى تقود الإنسان نحو آفاق الحب والسلام والحضارة، كما نحتاج لكبح أو تهذيب قوى الموت التي تسعى للسيطرة على الغرائز وقيادتها نحو الحيوانية والتوحش.

وهنا يمكن الإنصات جزئيا إلى نيتشه الذي قسم الغرائز إلى صنفين: الصنف الأول هو غرائز السمو، وهي تلك الغرائز التي تتوق إلى الازدهار والانتشار، والمحبة للحياة والقوة، والتي تنمي إرادة الحياة، وتشمل تحقيق الذات، والإبداع، والتفوق، والشجاعة، إلخ. والصنف الثاني غرائز الانحطاط، وهي غرائز كارهة للحياة والنمو، وتشمل الضغينة، والحقد، والانتقام، والشعور بالذنب، والجبن، والخوف، إلخ.

إن إصلاح الغرائز يستلزم التحول في الثقافة ونمط الحياة، وهذا غير ممكن بدون تطوير العقل الحامل للمفاهيم والتصورات، وتطوير العقل الديني في نظرته إلى الإنسان، سواء كان هذا العقل يعد الإنسان شريرا في أصله، أو خيرا في أصله، فكلتا النظرتين خاطئة؛ لأن الأنسان لم يُولد خيرا بطبعه، ولا شريرا بطبعه، بل ولد حاملا لقوى الحب والموت، ولد مُلهما بالفجور والتقوى، ومستعدا للخير والشر..(ونفس وما سواها...). والغرائز بها هذا الطابع الثنائي.

ولا يحكم «مبدأ اللذة» مجموع السلوك الإنساني، على عكس ما يذهب فرويد، بل مبدأ تحقق الذات، أو هكذا يجب أن يكون؛ حتى يتحول الواقع الفعلي إلى واقع قائم على الإنجازات ويتخلق مجتمع فاعل تتفتح فيه كل الطاقات البشرية إلى حدها الأقصى، ويتطور فيه الإنسان تطورا طبيعيا نحو الحضارة. هذه المسألة بالغة الأهمية بالنسبة لمصير بلادنا في حركة التقدم.

لا أظن أن أحدا من ثقافتنا العربية المعاصرة تنبه إلى أهمية الغرائز ودورها في عملية التقدم؛ لأننا لا نزال نفكر بالطرق القديمة التي ورثناها عن السابقين، فلا يزال تكوين العقل العربي القديم هو الحاكم لتكويننا العقلي المعاصر، ولا تزال بنية العقل العربي بنية جامدة عند أشكالها القديمة. وعلى الرغم من كل معايشتنا للحداثة، فهي مجرد معايشة ظاهرية تقوم على القشور.

والأسئلة الواجبة هنا: كيف يمكن تفكيك العقل العربي القديم وتصديع بنيته التقليدية؟ كيف يمكن تكوين عقل عربي جديد ببنية جديد تسمح بالتطور الطبيعي لإنسان لا يقوم على بعد واحد مختزل؟ كيف يمكن تشكيل إنسان تقوده الإرادة العاقلة، ويتعامل مع الغرائز بوصفها عطايا إلهية، يمارسها في شكلها الطبيعي، ويسمو بالطاقة الزائدة منها في مجالات الإبداع الفني والعلمي والرياضي والأدبي؟».

إصلاح الغرائز (٣)

٨ سبتمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

أكاد أجزم أن ثقافتنا بها مشكلة حقيقية، بل مشاكل، في التعامل مع كل الغرائز، سواء غرائز جسدية أو غير جسدية. ولنقف قليلا عند الثقافة التي تحكم طريقتنا في إدارة غريزة التملك. إن ثقافتنا على الرغم من أنها ثقافة ترفع شعار الأمانة في الملكية والتملك، لكنها تمارس ابتلاع حق الآخرين!

على سبيل المثال، استرجع مع نفسك ماذا يتم في الميراث، يقول لك أحدهم :» تطبيق شرع الله«، لكنه في الواقع يغتصب حق أخواته البنات، وربما الأولاد، تحت شعارات وحيل لا أول لها ولا آخر! والعجيب أنه متدين، وشعاره (شيئان إذا حفظتهما لا تبالي بما ضيعت بعدهما: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك). كيف يفهم هذا المتدين المزيف المتقنع بأقنعة الفضيلة هذه العبارة؟ (درهمك لمعاشك) معناها عنده أن يستحوذ على كل شيء في طريقه، وعنده مليون طريقة وحيلة للتبرير الديني والتبرير الاجتماعي. أما (دينك لمعادك) فيفهمها أنه طالما صلى وحج وصام ودعا الله ليل نهار فيمكنه أن يَنجى من النار حتى لو أكل مال اليتيم ومال الجار، وكله بالقانون! فالدين عنده طقوس، أما المعاملات التي تختبر المعادن فعلا، فلها عنده ألف تبرير وتبرير، المهم عنده هو (درهمك لمعاشك)! أما الله سبحانه فيمكن أن يرضيه هذا المسخ الإنساني ببعض الطقوس وبعض التملق! (سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا). وهو يعظ الآخرين مكررا : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا)، نعم يعظ ! نعم يصدق نفسه! نعم يصدقه المغفلون! نعم يضع نفسه في موضع العادل الرحيم! لكنه لا ينسى أبدا (درهمك لمعاشك)؛ ويقاتل من أجل ذلك ويخدع الآخرين، ويخدع نفسه بالحيل الدفاعية اللاشعورية، بل يظن أنه يخدع ربه بالتملق!

إن غريزة التملك غريزة من الممكن أن تتحول إلى طاقة للتعمير والبناء والحفاظ على الحقوق، ومن الممكن أن تتحول إلى اغتصاب حقوق الآخرين والهدم والتوحش. الفرق فقط يكمن في طريقة التعامل وإدارة الغريزة، وفي هذا الفرق يكمن أيضا الاختلاف بين التحضر والتوحش. وربما يمكنك القول: هذا هو الفرق أيضا في المجتمعات الرأسمالية بين الرأسمالية الوطنية وبين الرأسمالية المتوحشة. إن غريزة التملك في المجتمعات المتحضرة تتحول إلى طاقة للتنافس الشريف والعمل والإنتاج، وينظمها قانون عادل، وقضاة عادلون، ونظم إدارية واجتماعية منضبطة. وفي المجتمعات المتخلفة تتحول غريزة التملك إلى طاقة للاستحواذ والطمع والسرقة والتحايل والفهلوة والغش والتدليس. وينظمها القانون، لكن القانون يفسره محتالون ومنحرفو الضمير والمجاملون، حتى وإن كانت هذه المجتمعات مجتمعات متدينة! فتدينها تحكمه حيل التبرير والازدواجية والنفاق والمجاملة والمخاتلة. وعلى الجانب الآخر في المجتمعات الاشتراكية تجد الفرق بين الشيوعية التي تلغي غريزة التملك، فتفشل فشلا ذريعا، أما الاشتراكية المعدلة التي جددت نفسها واعترفت بتلك الغريزة لكن نظمتها، فنجحت نجاحا كبيرا.

إن اتساع رقعة الفقر في بقاع الأرض والمجتمعات التي تحكمها ثقافة تملك فاسدة ومحتالة، وصل إلى معدلات غير مسبوقة، بسبب القوانين والتشريعات المنحازة لأصحاب رؤوس الأموال، وبسبب شِرْذِمَة من قضاة فاسدين ومجاملين، وبسبب موظفين غير أمناء، وقبل كل ذلك بسبب دعاة الفضيلة والعدالة والتدين الذين لا يتورعون عن أكل حقوق الغير. ولِمَ لا ؟ فهم يظنون أنهم في مأمن من الله؛ فها هم أولئك يتملقونه بالطقوس مثلما يتملقون بالمال كل من يرتشونه من كبار الموظفين أو صغارهم! سبحانه وتعالى عما يظنون ويتصورون. (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُون. فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ). (سورة البقرة ٩-١٢).

إن سياسات وقوانين البلدان المنحازة إلى «عصابة مالية طفيلية» هي التي أدت إلى تكدس الأموال في يد نخبة غير وطنية لا تحكمها سوى «الرأسمالية المتوحشة». وهو ما ظهر على سبيل المثال في عصر مبارك قبل ثورة ٢٥ يناير. وربما يكون أحد أكبر أخطاء ذلك العصر هو العجز عن التحول نحو «الرأسمالية الاجتماعية»، بل عدم الرغبة أصلا في هذا التحول!

إن غريزة التملك بحاجة إلى إصلاح حقيقي في ثقافة الأفراد، وثقافة النظم التي تديرها. بحاجة إلى عقل ديني جديد مرتبط ارتباط جذري بمفاهيم التنمية الاقتصادية والإصلاح الاقتصادي. إن الرابطة بين الاصلاح الديني والتنمية الاقتصادية رابطة جوهرية لابد أن ندركها ونتوقف عندها كثيرا، فلا تنمية اقتصادية بدون خطاب ديني جديد. والخطاب الديني التقليدي تحكمه أفكار رجعية تفسد الدين كما تفسد الاقتصاد. ولابد من تغيير مفهوم «العمل الصالح» حتى يصبح هو العمل الأمين الملتزم بحدود وطرق انتقال الملكية، وهو العمل المنتج مثل الصناعة والزراعة. وهذا لن يحدث بدون التأكيد على أن اتقان الأعمال الدنيوية عبادة في وزن اتقان الطقوس والشعائر، وأن الاعتداء على ملكيات الآخرين كبيرة من الكبائر والموبقات لا ينفع معها تملق ولا تبرير، ولا يقلل من فداحتها أساليب المخاتلة والحيل دفاعية.

إصلاح الغرائز (٤)

١٥ سبتمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

ويدور حول ثقافة التحريم ظاهريا والانفلات سرا، والفرق بين الإدارة العقلانية للغريزة الجنسية والإدارة الهمجية لها، والثقافة الذكورية، وانتهاك الخصوصية، وضرورة إصلاح طرق إدارة الغريزة...

ونص المقال:

«إن ثقافتنا تعاني من الانفصام والازدواجية؛ فعلى الرغم من أنها ثقافة التحريم، لكنها تمارس الانفلات سرا، وعلى الرغم من أنها ثقافة غض البصر، فإنها تمارس انتهاك حرمات الآخرين، بل تتجاوز ذلك إلى انتهاك خصوصيتهم كاملة.

والأكثر من ذلك أن مفهوم الخصوصية غائب من تلك الثقافة غيابا مريعا مما يعكس حالة من التخلف على مسارات التحضر.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، وهو مثال بسيط لكن لا تستهين بخطورته؛ لأنه على الرغم من بساطته يعطيك مؤشرا على درجة التخلف العام في السلوك الجمعي. في مجتمعات التخلف الحضاري تجد الأغلبية تنظر للأغلبية في الشارع والمطاعم والنوادي والأسواق والبنايات وعلى الشواطئ! على عكس أهل الحضارات المتقدمة الذين يمشون سويا على صراط مستقيم لا يلتفون إلى بعضهم البعض ولا يقتحمون الآخرين بنظرات جنسية أو حتى فضولية؛ فغريزة الجنس تسير –من هذا الجانب– في مسار ثقافة التحضر، وقل مثل ذلك في غريزة الفضول.

أما عن التحرش الجنسي بأنواعه في مجتمعات التدين الزائف، فتحدث عنه ولا حرج! مما يعكس مشكلة حقيقية في ثقافة التعامل مع الطاقة الغريزية في شقها الجنسي. البعض يفسر ذلك بالكبت، لكني أتصور أن المسألة أكبر من ذلك؛ لأن هذه الظاهرة تضم أيضا طائفة من المتزوجين، بل وأحيانا المتزوجين بأكثر واحدة.

لا شك أن الكبت يفسر جزءا من الظاهرة، لكنه لا يفسرها كلها. المسألة تحتاج إلى دراسات معمقة من علماء النفس والاجتماع والفلاسفة. وتشير الظواهر الأولية إلى أن هناك نسبة تستهدف الإشباع الجنسي، ونسبة أخرى غير قليلة تفعل ذلك بدافع التعود، بينما نسبة ثالثة يريدون إثبات ذكورتهم! وهناك دوافع أخرى غير تلك، لكن رد الظاهرة إلى عامل واحد فقط على عادتنا في تفسير الأشياء، هو خطأ بلا ريب.

ومن أسف نحن ننحاز للثقافة الذكورية وليس إلى الثقافة الإنسانية. فلا نزال نعتقد أن الرجال لهم ميزات إضافية على النساء، وأن لهم حقوقا ليست لغيرهم، وأن بعض أخطاء الرجال تُسأل عنها النساء! إن مجتمعنا في قطاع منه يقع في تناقضات لا أجد لها تفسيرا، ففي بعض الوقائع يدين الرجل لمجرد ادعاء المرأة، وفي وقائع أخرى يحمل المرأة مسئولية خطيئة الرجل! نحن لا نزلنا ثقافة المتناقضات!

إن المسئولية مشتركة بين الجنسين، وحواء لا تتحمل وحدها خطيئة آدم، بل يتحملها الاثنان معا. وبصرف النظر عن طبيعة تلك الخطيئة، فإن المسئولية مشتركة في أية خطيئة أو خطأ من أي نوع، كل حسب دوره سواء في الإيعاز بالفعل أو في التنفيذ.

إن الغريزة الجنسية قد تتحول إلى طاقة للتعمير واستمرار النوع الإنساني وتحسين صفاته، بل قد تتحول في جانبها الزائد إلى طاقة للإبداع في الفنون والآداب والعلوم والرياضة والدين، عندما يتم الارتفاع الأخلاقي والتسامي بها لتخفيف التوتر الداخلي، وإعادة توجيه الطاقة الجنسية الزائدة لتحقيق أهداف راقية، فهنا تتحول الطاقة الزائدة إلى مربع جديد. وليس من المستبعد أن يكون تفسير فرويد لأعمال ليوناردو دافنشي قريبا من الصواب.

وهذه ليست دعوة مطلقة للتسامي، بل دعوة لإدارة الغريزة إدارة عقلية في مساراتها الطبيعية عن طريق الزواج، مع تحويل الطاقة الزائدة عن ذلك إلى مربع الإعلاء في الفنون والآداب والعلوم والرياضة والدين. وإن لم نفعل ذلك سوف تتحول الطاقة الزائدة إلى فوران وعدوان، وسوف تجد الطاقة الزائدة طريقها للخروج إلى مربع التحرش والاغتصاب والتوحش والعنف وربما الإرهاب. وإن لم تجد سبيلا إلى ذلك فسوف يتولد الكبت والمرض النفسي.

إن الفرق بين الإدارة العقلانية للغريزة الجنسية والإدارة الهمجية، يكمن في طريقة التعامل مع الغريزة الجنسية. وفي هذا الفرق يكمن الاختلاف بين التحضر والتوحش، بين الممارسة الإنسانية والممارسة دون الحيوانية؛ لأن الممارسة الحيوانية □ فيما أعلم–لا تقوم على الاغتصاب أو منافاة قواعد الفطرة الحيوانية، لكن في الممارسة الإنسانية قد تتجاوز القواعد والعرف والفطرة وتهبط إلى ما دون الحيوانية. في الممارسة الحيوانية تجد طريقة واحدة متشابهة في دوافعها وأدائها وغاياتها، وهي تعمل بشكل جبري عند كل أفراد النوع، مثل البقر أو الخيل أو الفيلة أو القطط. لكن عند الإنسان تجد تباينا بين الثقافات، وتجد تباينا بين أفراد الثقافة الواحدة نفسها. وأنا هنا لا أعني طريقة الأداء الجسدي، بل أعني السلوكيات العامة الناتجة عن الثقافة الحاكمة لطريقة التعبير عن الطاقة الغريزية في العقل الجمعي.

وهذه الثقافة بحاجة حقيقية للإصلاح في مجتمعاتنا، ورؤيتنا للغريزة الجنسية لابد من كشفها على حقيقتها وبيان تناقضاتها ووضعها تحت آلات التفكيك النفسي والاجتماعي والفلسفي، كما أن رؤيتنا للرجل والمرأة وطبيعة العلاقة بينهما بحاجة لإعادة البناء، بل إن رؤيتنا للعالم والوجود بحاجة إلى تغيير حقيقي.

ومن أهم مفاتيح الحل أن نعلم أن الغرائز إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل؛ ولذا لابد من فتح مسارات الفنون والرياضة والآداب والعلوم، إبداعا أو تذوقا، أمام الناس عامة والشباب والأطفال خاصة في النوادي ومراكز الشباب وقصور الثقافة والمسارح ودور السينما. ولابد من التوسع في المدارس والجامعات أمام دروس الموسيقى والغناء والفنون عامة، والمنافسات الرياضية، ونوادي العلوم، والأنشطة الثقافية والاجتماعية. فهذا ليست أنشطة كمالية، بل ضرورية من أجل بناء الشخصية، ولا تقل أهمية عن المقررات العلمية».

إصلاح الغرائز (٥)

٢٢ سبتمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

ويدور حول الخلل الإدراكي في ثقافتنا للعلاقة بين الجنسين، وطرق إصلاحه. ونص المقال:

«نظرا لأننا مدعو فضيلة، فإننا لا نأخذ ثقافتنا الجنسية إلا سرا، وهنا تكون المصادر السرية مليئة بالأخطاء، فالبعض يستقي معلوماته من الأصدقاء أو مواقع الإنترنت أو الأفلام أو المجلات الصفراء. كما أن الكثيرين يأخذون ثقافتهم من فتاوي الشيوخ، وبعض الشيوخ يستقون معلوماتهم دون تمييز من كتب التراث القديم التي صنع معظمَها أناسٌ أصحاب ثقافة بدوية وليست ثقافة علمية، وهي ثقافة تفهم النصوص الدينية فهما رجعيا، بل وتزايد عليها وتسقط عليها أكثر من معانيها الأصلية؛ فالثقافة الاجتماعية البدوية أو الثقافة الاجتماعية الشعبية تلون النصوص والكلمات المقدسة بمنظومة عادات موروثة من مجتمع متخلف في أفكاره. وبكل بساطة تُحول المفاهيم والتصورات البشرية إلى معتقدات مقدسة، مع أننا لو فهمنا الكلمات الإلهية فهما منضبطا لن نجد مثل تلك المعاني!

إن ثقافتنا تدعي العفة، وهي ثقافة التحريم والعيب، لكنها في الواقع تمارس النقيض. إنها ثقافة تعاني من نقص المعلومات السليمة لأنها تفرض سياجا على عملية التعلم الصحيحة، وتترك هذا الأمر لفتاوى الأصدقاء. ويستحي الوالدان والمدرسون من إعطاء المعلومات الصحيحة، لكنهم لا يدرون أنهم بذلك يتركون الأبناء فريسة للأفكار المنحرفة التي يستقونها من المسارات غير الرسمية والأفلام الإباحية بكل ما فيها من انحرافات.

وهنا يكمن السؤال: كيف يمكن تغيير ثقافة التعامل مع الطاقة الغريزية لتكون قوة للتعمير والإبداع أو على الأقل للتحضر؟

ببساطة عن طريق تغيير طرق التفكير، وإحلال المعتقدات والتصورات السليمة والناضجة محل المعتقدات والتصورات الخاطئة والمتخلفة. ودوما تسبق عملية التفكير عملية الفعل نفسه، وفي الاعتداء الجنسي يمر المعتدي بعدة مراحل بعضها فكري، وبعضها عملي. وأول مرحلة هي مرحلة التفكير التي تعمل فيها المعتقدات والتصورات السابقة دورا كبيرا، وأيضا حيل التفكير في البحث عن طرق التبرير والتغلب على المحرمات الدينية والموانع الاجتماعية والقانونية، والبحث عن مبرر للتحرش سواء طريقة ملابس المرأة، أو طريقتها في التصرف، أو المشاكل والضغوط الحياتية، أو الحرمان، أو عدم التحكم في الذات، إلخ. وبعد أن يمر الشخص بهذه المرحلة من التفكير، يقوم العقل بأخذ القرار بالفعل وإصدار الإذن للمعتدي. إذن لابد من أن تبدأ عملية المعالجة من تغيير طريق التفكير والقضاء على الأنماط القديمة في التفكير التي تؤدي في النهاية إلى الفعل الخطأ.

هكذا نعود مرة أخرى إلى تطوير العقل وتغيير طرق التفكير، فهي شرط الشروط في الانتقال في إدارة الغريزة من نمط سلوكي إلى نمط آخر، ومن نمط حياة إلى نمط آخر، بل هي المنعطف للانتقال من عصر إلى عصر، وهي المفتاح الحقيقي للتقدم الاجتماعي والديني والاقتصادي، إلخ.

إن ثقافتنا يوجد بها خلل إدراكي للعلاقة بين الجنسين، كما تتسلل فيها بعض المعتقدات العقلية التي تشجع وتبرر سلوكيات الاحتكاك والاعتداء الجنسي. وهنا يجب التوقف طويلا من أجل مراجعة أنفسنا، حتى نعرف ضرورة تغيير رؤيتنا للجنس الآخر، بل تغيير رؤيتنا لأنفسنا. وهذا جزء من تغيير رؤيتنا للعالم بوصفها شرطا للتخلي عن رؤيتنا القديمة التي نستقيها من ثقافة القدماء المرتبطة بظروفهم الاجتماعية والاقتصادية.

وتغيير ثقافة التعامل مع الطاقة الغريزية، أمر بالغ الأهمية، وأول شيء هو تغيير حدود مفهوم الجنس وعلاقاته بسائر جوانب الإنسان. إن مفهوم الجنس ليس قاصرا على العملية الجنسية ذاتها، بل يتجاوز ذلك إلى كل العمليات السابقة واللاحقة على هذه العملية، مثل العلاقات العاطفية، وطرق التواصل، والتواعد، وطريقة التعبير والمحادثة، والنظرة إلى الجسد، وتأكيد الهوية الجنسية للطفل (ذكر أم أنثى)، والنشوة، وأخذ القرارات، والأمراض الجنسية وطرق الوقاية منها وطرق علاجها، والتوجه الجنسي، والتشريح الجنسي، والصحة الجنسية، والتكاثر، والإخصاب، وعملية الحمل، وتطور الجنين، والولادة، وحقوق التناسل، ووسائل تحديد النسل، وتنظيم الأسرة، بل يتجاوز ذلك إلى بعض عمليات التفكير والإبداع، إلخ.

كما يلزم أن نعيد النظر في الغرائز كلها، ووضعها في إطار الرؤية العلمية، واعتبارها جزءا أصيلا في الإنسان. ومن اللازم أن تكون جزءا من أي مشروع إصلاحي للإنسان مثلها مثل العقل النظري، والعقل الديني، وملكة الوجدان، والعقل العملي. ومن الثغرات الكبرى أن المشروعات الفلسفية الإصلاحية لم تنتبه إلى الغرائز كمحور أصيل في وزن بقية المحاور، وفي الحالات النادرة لبعض المشروعات الفلسفية يتم الالتفات إليها في السياق العابر وليس كركن في إصلاح الإنسان.

إن الإنسان يولد وعنده ميل فطري لاكتشاف العالم من حوله، ونزوع لفهم الحياة، ومن بينها العلاقة بين الجنسين. ومن أكبر الأخطاء الظن أن الثقافة الجنسية لها عمر معين أو أنها تُقدم دفعة واحدة. كما أنني لست مع وجهة النظر التي تريد لها مقررا منفردا في التعليم. نحن أصبح عندنا هوجة مقررات إضافية جديدة لكل شيء!

والصواب أنها ثقافة تدريجية عبر المراحل العمرية، وأن تعلمها يأتي على مراحل وبطرق مختلفة في الحياة المنزلية تحت رعاية الوالدين، وفي المدارس من خلال المقررات الدراسية المتنوعة، كل مقرر حسب طبيعته.

ويجب أن نعلم أن أسئلة الأطفال البريئة هي أسئلة طبيعية يجب الإجابة عليها بطريقة مناسبة وليس رفضها أو استهجانها أو الرد عليها بمعلومات مضللة أو أساطير. وعلى الآباء والأمهات أن يتجاوبوا مع أبنائهم وأن يثقفوا أنفسهم بالثقافة العلمية التي تساعدهم على ذلك، والرجوع إلى المتخصصين لمعرفة الأسلوب الأمثل لطريقة الإجابة؛ لأن أهل الحل والعقد في هذه الأمور هم علماء الاجتماع والنفس والتربية والطب والفلسفة.

ومن الضروري أن تتنوع الأدوار في عملية تغيير طرق تفكيرنا في الغريزة الجنسية، وهنا نجد ضرورة التربية الجنسية عن طريق الإعلام، والمدرسة، والوالدين، والمنابر الدينية، والكتب المتخصصة المبسطة، والأعمال الفنية. لكن المشكلة عندنا في الأساس تكمن في التصورات الخاطئة المسيطرة على أصحاب بعض تلك المنصات. فنحن بحاجة لتغيير ثقافة هؤلاء أولا؛ لأنهم سبب رئيس في تخلف الثقافة العامة في هذا المجال! ويجب أن يكون لدينا الشجاعة في التناول العلمي لها تناولا رصينا من خلال العلوم الطبية والإنسانية والاجتماعية والتربوية، وأن تكون هذه العلوم هي المرجعيات في البرامج التربوية سواء في الإعلام أو المدارس أو البيوت. فقد آن الأوان للتحول نحو الثقافة العلمية الوضعية وتجاوز الثقافة الرجعية واللاهوتية».

القواعد السبع لتحقيق الذات

٢٩ سبتمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تعددت قواعد النجاح عبر التاريخ، لكن لكل منا رؤيته الخاصة. ومع بداية كل عام دراسي، يسألني الكثير من الطلاب عن نصائحي لهم. وفي هذا العام أريد أن أقدم لهم رؤيتي مكتوبة وليست شفوية كما كنت أفعل في الماضي، وهي تتلخص في قواعد سبع لتحقيق الذات والنجاح.

تجدونها في مقالي اليوم بالأهرام :

«تعددت قواعد النجاح عبر التاريخ، لكن لكل منا رؤيته الخاصة. ومع بداية كل عام دراسي، يسألني الكثير من الطلاب عن نصائحي لهم. وفي هذا العام أريد أن أقدم لهم رؤيتي مكتوبة وليست شفوية كما كنت أفعل في الماضي، وهي تتلخص في قواعد سبع لتحقيق الذات والنجاح:

١- اعرف نفسك : لابد أن تعرف قدراتك ومواهبك، واعمل على تنميتها. بداخل كل إنسان كنز. اكتشف الكنز داخلك واعمل على تنميته. لابد أن تعرف حدود قدراتك بشكل دقيق، دون تضخيم وتمجيد، فلا تكون مثل الذين يعانون من تضخم الذات، وينتفخون ويتكبرون. وأيضا لا تقلل من شأن ذاتك ولا تستصغرها، ولا تجلد نفسك بأخطائك، بل حاول تجاوز الأخطاء دون تأنيب وشعور مضخم بالنقص. اعرف قدراتك في حجمها الطبيعي، واكتشف مواهبك. كان معنا في الإعدادية زميل لا يستطيع أن يُجارينا في الرياضيات والعربي والعلوم، وكان موضع استهجان من الأغلبية للأسف. لكنه كان موضع تقدير مني؛ لأنه كان فنانا حقيقيا، ويمتلك أنامل رسام عالمي. لكن من أسف لم تقدره بيئته، وتعرض لضغط نفسي رهيب. لكن لو كانت البيئة جيدة، لتم توجيهه نحو التميز في موهبته النادرة. ولو كنت منه لضربت بالجميع عرض الحائط، وركزت في موهبتي. اكتشف نفسك، لا تقيس نفسك على غيرك، فإن الله قد وزع المواهب مثلما وزع الأرزاق. المهم تكتشف طريقك، والأهم أن تسير فيه حتى ولو كان تحقيق ذاتك بعيد المنال، لكن يجب أن تصر على أن تسير حتى النهاية، فهناك سوف تجد ذاتك. وهنا أنصحكم بقراءة حياة نجيب محفوظ فسوف تجدون فيها شيئا لا يقل روعة عن أدبه المكتوب.

٢- التغيير يبدأ بالعقل: اذا أردت أن تغير نفسك ابدأ بتغيير طريقة تفكيرك؛ فتغيير الإنسان يبدأ من تغيير العقل، وإذا أردت تغيير العقل فتش عن منهج التفكير. فطريقة التفكير هي الإجراءات التي تتبعها في تفكيرك وخطوات الاستنتاج والاستدلال التي تسير عليها، ففي عملية الاستدلال توجد خطوات، حيث تسلمك الخطوة للخطوة التالية. هناك فرق بين طريقة التفكير وحفظ المعلومات والاسترجاع. هناك فرق بين نظام ويندوز والمعلومات المحفوظة على جهاز الكمبيوتر، لو هذا الجهاز عليه معلومات الدنيا كلها ونظام ويندوز فاشل، لن يمكنك الاستفادة من هذه المعلومات. فهكذا عقلك، إن كان يعمل بطريقة خاطئة لن تفيده معلومات الدنيا كلها.

٣ – حدد هدفك: لابد أن يكون لك هدف مرحلي، وأن يكون لك غاية استراتيجية. والعمل علي اتباع كل الوسائل الصحيحة التي تؤدي إلي تحقيق الهدف المرحلي، ثم انتقل إلى الهدف المرحلي الذي يليه، حتى تحقق مجموع أهدافك، وهنا سوف تجد أنك حققت غايتك الاستراتيجية. وكن واقعيا في تحديد أهدافك وفي تحديد غايتك؛ فلابد أن يتلاءم ذلك كله مع قدراتك ومواهبك. وأيضا كن واقعيا في خططك التنفيذية، حتى لا تفشل وتحبط. وإن فشلت حاول ثم حاول، فالصواب لا يأتي دوما إلا بعد محاولات خاطئة. إذن عليك أن تحدد آفاق وحدود «الأمل» الذي يجب أن تتطلع إليه، كما يجب أن تضع أجندة أولويات تجيب فيها على هذا السؤال: ماذا يجب عليّ أن «أفعل». واعلم أن الأماني والأحلام لا يمكن أن تتحقق بدون عمل وجهد ومكابدة.

٤-اصنع تاريخك: يجب عدم الاعتماد علي الحظ، بل لابد من الإرادة والتخطيط والعمل المتقن واتباع كل الوسائل الصحيحة المؤدية لتحقيق الهدف. واعلم أن ٧٥٪ من حياتك تملك التحكم فيه. أما الأمور الحتمية الخارجة عن إرادتك فلا تجاوز ٢٥٪ في الحياة الطبيعية. ولا تتحجج بالعقبات والظروف؛ فأغلب العظماء الذين غيروا التاريخ نشأوا وعاشوا ظروفا صعبة، وأذكرك بحياة محمد عليه الصلاة والسلام، وعيسى وموسى عليهم السلام. وأذكرك بالمفكرين والعلماء والفنانين الكبار مثل كونفوشيوس وسقراط وجاليليو وسبينوزا وفان جوخ.إلخ.

٥- المعرفة قوة: اسلك طريق العلم، فالعلم هو طريق التقدم، وبالعلم يعز الله قوما ويذل آخرين. ويجب أن تتوسع في القراءة، خاصة القراءة التي تساهم في تحسين طرق التفكير وتزيد معرفتك بنفسك وبالعالم من حولك، والقراءة للفلاسفة والمفكرين الكبار، والتنوع في القراءات، حتى تكون عندك مصادر مختلفة لمعلوماتك، وحتى تتطلع على تجارب متنوعة ومتعارضة. أنا شخصيا تعلمت من أمي في الطفولة قراءة كل شيء يقع أمامي. هل تعلم لماذا؟ هل لأنها نصحتني بذلك؟ تخيل لا. بل سمعتها وأنا في عمر الأربع سنوات تتحدث مرارا عن إعجابها المفرط بابنة حارس العقار، كانت تقول أمي رحمها الله: إن هذه الفتاة التي لم تدخل المدرسة، أصرت على التعلم، وذهبت لفصول محو الأمية. والمؤثر الأكثر فيّ وأنا طفل، أنها -رحمها الله- كانت تكمل قولها بأن هذه الفتاة تقرأ أية ورقة تجدها على الأرض. وهذا الطفل تأثر بإعجاب أمه بهذه الفتاة، وأراد هو الآخر أن ينال إعجابها، فطلب مدرسا خاصا لتعليمه القراءة قبل أن يدخل المدرسة! وفي تلك الفترة طبعا لم يكن في بيئتنا KG1 و KG2 . وعندما كنت في فترة الدراسة الثانوية تلقيت تأكيدا من أحد العلماء الذي كان يسكن بجوارنا (تنوع في مصادر قراءتك، ولا تحصر نفسك في تيار أو مذهب أو كاتب أو مجال واحد). وأذكر أنني في الصف الأول الثانوي كنت أقرأ للطبري والفخر الرازي والشوكاني وجان جاك روسو وماركس وبرتراند راسل وغيرهم هنا وهناك.

٦- اربط تجربتك الخاصة بتجربة الوطن: فتقدمك مرتبط بتقدمه، وأمنك مرتبط بأمنه، وسلامتك مرتبطة بسلامته. لا يمكن أن تكون آمنا في وطن غير آمن، ولا يمكن أن تكون ناجحا في وطن فاشل. من ليس به خير لوطنه وأهله ليس به خير لأي إنسان.

٧- شعارك في الحياة: ليكن: (إلى النجوم من خلال العقل والمشقة)، والبداية الآن وليس غدا. صنع المستقبل يبدأ الآن. المهم أن تبدأ حتى ولو بالقليل، والمهم أن تواصل، فخير الأعمال أدومها وإن قل. ومن المهم أيضا ألا تسير الرحلة مع القطيع، بل شق لنفسك طريقا متفردا. واعلم أن كل شيء صعب يتحول إلى سهل بالتعود، غالبا البدايات صعبة، لكن ما إن تقطع مرحلة من الطريق بعقل وتخطيط، فسوف تعدل تلقائيا من نفسك وتصبح أقدر. اقرعوا يُفتح لكم».

حرب أكتوبر وتغيير طرق التفكير

٦ أكتوبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تمثل حرب أكتوبر في حياة وطني وحياتي علامة بارزة. ولذا وجدت من الضروري إعادة قراءتها قراءة فلسفية جديدة في رباعية من المقالات تركز على سبعة دروس يجب أن نتوقف عندها.

أول هذه الدروس في مقال اليوم هو درس «فن التحدي والاستجابة» في ضوء نظرية أرنولد توينبي فيلسوف التاريخ ، ونظرية كارل يونج Carl Jung في علم النفس السلوكي.

والمقال منشور بالأهرام اليوم بعنوان (حرب أكتوبر وتغيير طرق التفكير) :

«تواجه مصر المعاصرة تحديات كبرى وتحمل على أكتافها ميراثا طويلا من الهموم التي تعيق نهضتها بعد عصور طويلة من التراجع، وتجد أمامها عقبات كبرى تحول دون انطلاقها، عقبات حملتها معها من الماضي، وعقبات ولدتها صراعات دولية فرضتها عليها القوى الاستعمارية، وعقبات نُسأل عنها نحن بطريقتنا في الحياة وطريقتنا في التفكير.

وأتصور أن التحديات التي تواجه مصر تحديات كبرى، مثل: الفقر، والإرهاب، والجهل، والتخلف، والفساد، وروح السلبية واللامبالاة، البيروقراطية والروتين، والتدخلات الاقتصادية المفتعلة والاحتكارية والإغراقية، وثقافة الاستثناءات، والتآمر الذي تقوم به القوى الداعمة للإرهاب العالمي، وحروب الجيل الرابع، إلخ.

تلك التحديات نحن قادرون على مواجهتها إذا استعدنا اللحظات الاستثنائية التاريخية التي واجهنا فيها تحديات كبرى وانتصرنا عليها، ومن أهم تلك اللحظات لحظة حرب أكتوبر التي سبقتها إرادة بصيرة، وسبقها تخطيط استراتيجي، اقترن بهما قدرة على التنفيذ على الأرض. ولا يقل عن ذلك إظهار حرب ٦ أكتوبر لقدرتنا على تلافي كل عيوبنا التاريخية في التفكير.

ومن أكبر تلك العيوب أننا لا نعرف حدودنا ولا قدراتنا في حجمها الطبيعي. وهذا جزء من طرقنا القديمة في التفكير التي لابد من نسفها من أجل تطوير العقل ومواجهة تحديات الواقع. وهذه الآفة العقلية ضرتنا ضررا بالغا عبر التاريخ، وعلى سبيل المثال في حرب اليمن، وحرب ١٩٦٧ م، فقد رأينا تمجيدا مبالغا فيه وادعاءات قوة لا حدود لها، وعدم حساب قدرات العدو وقدراته الحقيقية حسابا دقيقا؛ فكانت النتيجة ما يعلمها الجميع! لكن عقب ذلك خفوت الصوت وصعود العقل والحساب الدقيق للقدرات، فكانت حرب الاستنزاف بكل بطولاتها وحرب أكتوبر بكل أمجادها التي استهدفت انتصار الإرادة ومواجهة التحدي؛ ذلك التحدي الذي قارب المستحيل في تقدير إسرائيل والقوى العظمى بكل ما لديها من معلومات وقدرة على تقدير الموقف. وكان أحد أسرار ذلك هي إعادة بناء الضابط والجندي المصري.

وأود هنا أن أتوقف على الفرق بين طريقتين في التفكير في حرب ٦٧ وحرب ٧٣، في الحرب الأولى كان هناك تفكير قائم على تضخم الذات وسوء تقدير الموقف وتجاوز الهدف لحدود القدرات وضعف المعلومات عن الخصم وطريقته في التفكير، وفي الحرب الثانية كان هناك تفكير قائم على العقلانية في معرفة الذات وحساب القدرات والتخطيط الاستراتيجي وتحديد الهدف في ضوء القدرات والمعلومات الدقيقة عن النفس وعن الخصم والمعرفة بطريقته في التفكير. وفي الحالتين كانت هناك إرادة، لكن الإرادة الأولى كانت مؤسسة على العاطفة الجوفاء والصوت العالي، والإرادة الثانية كانت مؤسسة على التخطيط العقلاني وحساب القدرات واستعداد وطن للتضحية إلى ما لا نهاية حتى يستعيد الأرض ويستعيد الكرامة من خلال التفكير العقلاني والمشقة.

وكان العقل يقتضي في ضوء قدراتنا الرد بهجمات نوعية وليس حربا شاملة. ثم كانت حرب ١٩٧٣م بكل ما فيها من عقلانية في التخطيط وحساب القدرات الفعلية على الأرض والخداع الاستراتيجي. وما الفرق بين ٦٧ و٧٣ إلا فرق في طريقة التفكير والقدرة على ترجمته إلى واقع فعلي على الأرض. والتنفيذ مسار صعب وهو التحدي الحقيقي لإعادة بناء دولة قوية بالمعنى الحقيقي وخوض غمار التنمية الشاملة، كما تقول القيادة السياسية.

ولقد توقف الكثيرون عند دروس حرب أكتوبر، وتوقف الكثيرون عند التحديات المعاصرة، لكن تظل الجسور بين دروس الإرادة في حرب أكتوبر وتحديات الواقع غير ممتدة. ومن أهم هذه الدروس:

الدرس الأول: فن التحدي والاستجابة

يمكن فهم لحظة ٦٧، ولحظة ٧٣، في تطور حياة مصر، في ضوء نظرية أرنولد تُوينبي «التحدّي والاستجابة»، ونظرية كارل يونج Carl Jung في علم النفس السلوكي.

فالحضارات مثل الأفراد، إذا واجهت صدمات أو تحديات، تتنوع استجابتها بين الاستجابات السلبية والاستجابات الإيجابية. ومن الاستجابات السلبية الارتداد إلى الماضي البعيد للاحتماء به والتغني به ومحاولة استعادته لتعويض الفشل في مواجهة تحديات الواقع بطرق معاصرة. أما الاستجابة الإيجابية فتتمثل في امتصاص الصدمة والإقرار بفشلنا، ثمّ بذل الوسع من أجل مواجهتها والتغلُّب عليها، بطريقة عقلانية ديناميكيّة، تعتمد على معرفة قدرات الذات وحجم التحدي ومحاولة التغيير بالتخطيط المدروس.

والاستجابة الإيجابية لا تتحقق بدون النخبة العاقلة المحدودة من القادة، وعندما توجد مثل هذه النخبة وتستطيع التأثير في الجمهور، فإن هذا الجمهور يستجيب لها وينقاد وراءها ويقلدها بواسطة المحاكاة العقلية الآليّة. فإذا كانت النخبة تقدمية وخلاقة فإن الجماهير تسير معها إلى الأمام والمستقبل. أما إذا كانت النخبة رجعية، فإن مُحاكاة الجمهور لها يتحول إلى حركة عقلية ماضوية تتجه إلى مُحاكاة القُدَماء. وربما من أهم أمراضنا المزمِنة أننا نصر على كل الحلول الفاشلَة الآتية من الماضي، مثلما يظهر في استجابة قطاع الماضويين بكل تياراتهم للتحدي بالنكوص إلى الوراء.

وهذا من وجهة نظرنا ما تنطبق عليه نظرية توينبي عن الاستجابة السلبية بالنكوص إلى الماضي. فكل الحركات الماضوية ذات استجابة استاتيكية جامدة منغلقة في ردها على التحدي. ونظرا لفشلها الفكري الذريع في نجاح نموذجها، تلجأ إلى العنف والإرهاب لفرض هذا النموذج.

ولا تنجح الاستجابة الإيجابية بدون الوصول إلى «الوسيلة الذهبية» لمواجهة التحدي بنجاح، ولا يمكن الوصول إلى هذه الوسيلة بدون المحاولة والخطأ مرات عديدة، لكن عند العثور عليها يبدأ الانطلاق.

وطريقة عمل العقل في حرب ٦ أكتوبر تفرض علينا اللجوء إلى النوع الآخر من الاستجابة الإيجابية على التحديات المعاصرة. لقد كان التحدي بعد ٦٧ كبيرا يفوق قدراتنا، لكن الاستجابة لهذا التحدي كانت رائعة، لأننا لم نستكن ونحتمي بالماضي المجيد، بل صنعنا واقعا جديدا، بالإرادة العاقلة التي يحركها الدافع الحيوي، والتخطيط الاستراتيجي، والقدرة على التنفيذ على الأرض، وتلاشي العيوب التاريخية.

علاوة على ذلك لابد من التأكيد على أن من أهم دروس أكتوبر أن الاستجابة الإيجابية لا تنجح بدون ظهور وتكوين نخبة جديدة بفضل عقلية السادات الذي قضى على مراكز القوى؛ حيث لم تكن إعادة البناء ممكنة بدون الإطاحة بمراكز القوى. ونجح في اكتشاف نخبة جديدة من القادة العقلاء، استجابت لهم الأغلبية عن طريق المُحاكاة الآليّة، وحدوث نوع من انقياد الوعي الجمعي لمُحاكاة الطليعة العاقلة. لكن للأسف توقفت هذه المحاكاة لتتحول إلى عقلية ماضوية تعمل آليات تفكيرها على مُحاكاةِ أقلية ماضوية، ومن أسف كان السبب هذه المرة هو أيضا السادات نفسه»

حرب أكتوبر والطريق إلى تغيير نمط الإنتاج

١٣ أكتوبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

مقال جديد بالأهرام يقدم رؤية للمعادل المدني لروح الجندية المصرية الأصيلة :

«كان الدرس الأول من حرب أكتوبر هو «فن التحدي والاستجابة» الذي تحدثنا عنه في المقال السابق في ضوء نظرية أرنولد تُوينبي «التحدي والاستجابة»، ونظرية كارل يونج في علم النفس السلوكي. وفي مقال اليوم سوف نتناول درسين آخرين، هما :

الدرس الثاني: من الاستثناء إلى أسلوب حياة:

كان العقل الذي صنع نصر أكتوبر لحظة استثنائية انتهت للأسف بانتهاء الحرب، وبعدها عاد العقل المصري لطريقته المعتادة. ولهذا نسأل دوما كيف نستعيد روح أكتوبر، كيف نستطيع تحويل هذه الحالة العابرة إلى حالة عامة، وتحويل الاستثناء إلى أسلوب حياة؟

أتصور أن الإجابة على هذا السؤال المتعدد الصيغ تكمن في معرفة سر لماذا يكون المصري في الجيش غير المصري في الشارع؟

عندما يلتحق المصري بالجيش يعيش حياة النظام والانتظام، والتي تتحول إلى حياة يعيد فيها بناء نفسه حتى يستطيع أن يتكيف مع عجلة الإنتاج والعطاء والبذل والفداء في الجيش. ولكنه عندما يعود إلى الحياة العامة تجده شخصا آخر! وقل مثل ذلك عندما يذهب إلى أي بلد متقدم، وعندما يعود تجد شخصا آخر. والسؤال كيف يمكن حل تلك الإشكالية؟

المواطن الفعال في مصر هو المصري مجندا، فما هو الحل؟

الحل هو البحث عن نظام اجتماعي يقوم على قيم الانضباط الذاتي المستمدة من قيم الجندية المصرية في حرب أكتوبر. والنظام الاجتماعي لا يُصنع بالمواعظ ولا الشعارات، ولكنه يُصنع بقيم الاقتصاد، لأن الاقتصاد هو محرك التاريخ، والانتقال إلى عصر المواطنة الحديثة في الغرب، كان له أسباب كثيرة لعل من أهمها حركة التصنيع؛ فالتصنيع ينتج نمطا جديدا من القوى المنتجة، وينتج علاقات إنتاج اجتماعية جديدة. والتصنيع يفرض نظاما على الحياة مختلفة عن النمط الاستهلاكي، ويعوِّد المواطن على نمط حياة يومي يقوم على المواعيد الدقيقة، ونظام العمل الصارم، وقوانين جودة المنتج. كما يخلق التصنيع قوى عاملة بشرية بمواصفات مختلفة عن مواصفات الموظفين التقليديين. ويجعل التصنيع طريقة تعامل الناس مع بعضهم البعض اجتماعيا مرتبطة معا في أنماط محددة بناء على علاقات العمل التعاوني التي تقوم على أشكال جديدة للترابط بين الناس. ومن ثم يحدد التصنيع علاقات جديدة بين الطبقات تختلف عن العلاقة النمطية بين الطبقات في نمط الاقتصاد الاستهلاكي المصري السائد.

ويجعل التصنيع طريقة تعامل الناس مع العالم المادي الخارجي تسير في نظام إنتاجي؛ حيث يجب على الناس أن تستهلك من أجل البقاء، ولكن من أجل الاستهلاك عليها أن تُنتج، وعندما تنتج فإنها تدخل بالضرورة في علاقات جديدة لها وجود منفصل عن إرادتهم الفردية التي كانت تميل إلى التراخي، وهذه العلاقات الجديدة هي علاقات نظام المصنع والتصنيع التي تُعد النظام المعادل المدني لنظام الجيش العسكري.

ومن هنا؛ فمن أهم أسباب التغيير الاجتماعي التي تحتاجه مصر تغيير نمط الإنتاج الذي تسير عليه مصر. إن نمط الإنتاج يشكل طبيعة نمط التوزيع، ويحدد أسلوب التداول، كما يحدد أسلوب الاستهلاك، وكلها معا تشكل المجال العام الاقتصادي. ومن ثمَّ تشكل المجالين الاجتماعي والفكري للمجتمع المصري.

إذن من دروس أكتوبر النظام، واستعادة عقل أكتوبر هو صنع نظام اقتصادي واجتماعي موازي لروح النظام في الجيش المصري، وهذا لن يأتي إلا بالانتقال إلى النظام الصناعي. الصناعة هي عصب النظام الاقتصادي الحديث، والنظام الاقتصادي ينتج نمطا جديدا من الحياة.

وفي هذا أيضا سر ضرورة التحول من نمط الاقتصاد الاستهلاكي إلى نمط الاقتصاد الإنتاجي الذي سوف يتغير معه وجه الحياة في مصر إذا توافرت لدينا إرادة هذا النوع من التحول.

الدرس الثالث: الوعي بحدود قدراتنا وتحديد الأمل وطريقة الفعل:

من أهم دروس أكتوبر الوعي بحدود قدراتنا وتحديد الأمل وطريقة الفعل، وإذا أردنا الاستفادة من هذا الدرس علينا رسم خريطة عمل يكون واضحا فيها :

١. الوعي بحدود وطبيعة «عقلنا» وحساب قدراتنا على «الفعل».

٢. ٢.آفاق وحدود «الأمل» الذي يجب أن نتطلع إليه.

٣. ماذا يجب علينا أن «نفعل».

هذه الجوانب الثلاثة يجب أن تحكم أية خريطة عمل سواء للفرد أو للوطن كما أوضحنا في مقالاتنا السابقة عن تطوير العقل. ويجب أن يضع كل فرد معالمها فيما يتعلق بشخصه وحده إذا أراد لنفسه تغييرا حقيقيا وتقدما كبيرا في حياته الشخصية، وأيضا يجب أن يضع معالمها العقل المصري العام على مستوى الوطن إذا أردنا أن يكون لنا موقعا بين الأمم المتقدمة.

وفي هذا الإطار يجب استلهام الدرس الذي استوعبناه بعد حرب ٦٧، حيث تسأل القادة: لماذا انهزمنا وانتصرت إسرائيل؟ وكان هذا السؤال هو نقطة البداية في التفكير الصحيح. واليوم يجب أن نسأل: لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟

سؤال قديم جديد، قدم السابقون عليه إجابات شتى، لكنها إجابات تم التوصل إليها مباشرة دون طرح أسئلة ضرورية قبلها، وقد فشلت تلك الإجابات لأنه لم يتم التأسيس لها معرفيا بالقدر الكافي؛ ولأنها لم تكن لها خريطة معرفية تقوم على الوعي بالحدود وحساب القدرات بشكل مقارن مع الأمم الأخرى، ولأنها لم تبحث في المنهج وطريقة التفكير، وأسباب الانتقال من عصر إلى عصر. وكانت معظم الإجابات على هذا السؤال إنشائية تقدم حلولا عامة متسرعة.

إن تطوير العقل العام المصري لكي يكون عقلا نقديا يفكر بطريقة سليمة، وإعادة بناء الوعي المصري لكي يكون وعيا حقيقيا وليس وعيا مزيفا، غير ممكن كما اتضح في مقالات سابقة- بدون معرفة العقل المصري لطبيعته وطريقة عمله، وحساب حدود قدراتنا على «الفعل» بعامة حسابا حقيقيا غير مزيف. ولعل هذا يكون خطوة على طريق تغيير طرق التفكير وتغيير نمط الإنتاج، يعقبهما تلقائيا تغيير نمط الحياة».

الحرب النفسية في حرب أكتوبر

٢٠ أكتوبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

مقال جديد بالأهرام يقدم رؤية مختلفة لفنون الحرب النفسية والحرب النفسية المضادة، والدور غير العادي لإدارة التوجيه المعنوي آنذاك، ودور السادات العلامة في تاريخ الحروب النفسية والتضليل المعلوماتي:

«في ضوء قراءة جديدة لحرب أكتوبر المجيدة وقفنا في المقالات السابقة عند ثلاثة دروس حتى الآن، هي فن التحدي والاستجابة، وكيفية تحويل الاستثناء إلى أسلوب حياة عن طريق تغيير نمط الإنتاج، وضرورة الوعي بحدود قدراتنا وتحديد الأمل وطريقة الفعل. وفي مقال اليوم سوف نتناول درسا آخر بالغ الأهمية، وهو: فن الحرب النفسية والحرب النفسية المضادة في حرب أكتوبر.

من المؤكد أنه لا انتصار ولا تقدم إلى الأمام إلا بدافع حيوي Elan Vital وطاقة كامنة تدفع الفَرد والمُجتمع إلى السير قدما في تحقيق الذات. هذا ما طرحه أرنولد تُوينبي الفيلسوف والمؤرخ البريطاني. وهذا هو أحد أهم أدوار الشئون المعنوية في أي جيش.

إن الروح المعنوية والمعالجة النفسية لمحو آثار هزيمة حرب ٦٧ لعبت دورا جوهريا وكانت بمثابة الروح التي تحرك الجسد نحو النصر أو نحو الشهادة. ولهذا كانت الحرب غير ممكنة بدون خلق الدافع الحيوي عند الفرد وعند النخبة المنتقاة من القادة. ولهذا قامت الشئون المعنوية بتحويل الطاقة الكامنة إلى طاقة عاملة في الواقع، وغرس الثقة بين الجنود بعضهم البعض، وبينهم وبين القادة، من أجل عبور القناة والتغلب على حواجز الصلب واللهب وتحطيم أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر ونظريته في الأمن تماما.

وهنا يجب أن نتوقف كثيرا عند دور الشؤون المعنوية في الحرب النفسية التي لا تقل ضراوة ولا أهمية عن معركة المعدات العسكرية على الجبهة. وتذهب كثير من النظريات العسكرية إلى أن الحرب النفسية التي تقوم بها الوحدات المتخصصة أكثر أهمية من الحرب نفسها. وقديما وجدنا ذلك في معركة بدر، ومعركة عين جالوت ضد التتار، وحديثا نجد ذلك في حرب ٦ أكتوبر.

والحرب النفسية ليست فقط ضد الخصوم في العمليات ذات الطبيعة العسكرية، بل أيضا في المجالات الأخرى الاقتصادية والسياسية، ودعم الجبهة الداخلية. وهناك أيضا الحرب النفسية المضادة. وتدخل في الحرب النفسية الضوضاء المعلوماتية، والتضليل الإعلامي، وصناعة الوعي المعلب، وصناعة المعرفة المزيفة، وحرب الأفكار، والتلاعب النفسي، وعمليات غسل الأدمغة، والحرب العقائدية والأيديولوجية.

وللحرب النفسية أنواع عديدة، استخدمتها الشؤون المعنوية بقواتنا المسلحة في حرب أكتوبر، والتي كان اسمها آنذاك «إدارة التوجيه المعنوي»، منها «الحرب النفسية الإستراتيجية» ضد قطاع كبير من الجماهير المستهدفة، و«الحرب النفسية التكتيكية» التي تستخدم في القتال للتأثير على جنود العدو. وأيضا استخدمت إدارة التوجيه المعنوي المصرية «الحرب النفسية للتدعيم»، فالحرب النفسية ليست فقط موجهة إلى الخصوم، بل منها دعم المجموعات القتالية في الجيش المحارب أو القوات الصديقة. وأيضا من أجل دعم الجبهة الداخلية والتماسك القومي. ويمكن أن نلمس ذلك في أمور كثيرة كلنا نعلمها، لكن أود الإشارة هنا إلى أمر كثيرا ما ننساه، وهو أن تأثير العمل المعنوي نجح في أن يمتد إلى استعادة الشعب المصري لنبله وقت التحديات الكبرى، فعلى مدى الحرب لم تحدث جريمة واحدة على أرض مصر.

وتعد الشائعات سلاحا من أسلحة الحرب النفسية في تحطيم معنويات الخصم، والقضاء على إرادته للقتال أو المقاومة، وإشاعة جو من عدم الثقة، وإحداث البلبلة وافتقاد القدرة على الحكم الدقيق والتمييز بين الصادق والكاذب من الأخبار ... الخ. إن الحرب بالشائعات تنظم ضد العقول والنفوس وليس ضد الأجسام، وليس هذا بالأمر الهين، بل إنه كثيراً ما يحسم كثيراً من المعارك قبل أن تبدأ في ميدان القتال. ومن الأمثلة التاريخية على أسلوب الحرب بالشائعات، والتي لا زالت نتائجها باقية حتى اليوم، هي غزوات جنكيز خان Genghis khan الفاتح المغولي والطاغية التتري المشهور.

إن القيادة المصرية في حرب أكتوبر نجحت بامتياز في الحرب النفسية والحرب النفسية المضادة، ونجحت قبل حرب أكتوبر في إحداث حالة من الضوضاء المعلوماتية، والتضليل الإعلامي، واستطاعت التلاعب النفسي بعقول القادة الإسرائيليين، بل أوهمت العالم كله أنها لن تحارب. وعلى مستوى الجبهة الداخلية حمت المصريين من عمليات غسل الأدمغة التي تقوم بها الدعاية المضادة. وأمام الدور القوي لإدارة التوجيه المعنوي حصنت الجنود من الحرب العقائدية والأيديولوجية مستخدمة في ذلك الفن والدين بشكل بارع. ومما شكل حصنا منيعا أمام عمليات تحطيم المعنويات ضد الجنود المصريين، تلك العقيدة القتالية التي تم زرعها في الضباط والجنود المصريين، والتي تراكمت عبر التاريخ، واستطاع القادة المصريون بلورتها بشكل صلب في إطار لا يمكن خرقه ولا اختراقه عندما تحولت العسكرية المصرية إلى عسكرية نظامية وفق النظم الحديثة.

وللحرب النفسية قواعد معروفة في المراجع العلمية، لكن قادتنا في حرب أكتوبر وقبلها كسروا كثيرا من قواعد تلك اللعبة، وحولوها إلى صالحهم، ففي الوقت الذي كانت الحرب النفسية الإسرائيلية تطبق ما قالت عليه الأبحاث العملية وأجهزة المخابرات العالمية بكل دقة، كانت القيادة المصرية توهم إسرائيل بنجاحها في ذلك. وتمكنت مصر من إحداث حالة من العمى الاستراتيجي على الأرض.

وهذا بالضبط ما فعله السادات على نحو ماكر قبل حرب أكتوبر؛ حيث استهدفت الحرب النفسية التي قام بها الجيش الإسرائيلي خلق حالة اعتقادية عندنا وفي العالم بأن الجيش الإسرائيلي لا يُقهر. لكن السادات غير مفهوم الحرب النفسية المضادة بطريقة أذكى؛ فهيأ للإسرائيليين أنه مصدق لما يشيعونه عن جيشهم، وفي المقابل فإنه لم يواجه حربهم النفسية بحرب نفسية مضادة على طريقة عبد الناصر من أن جيشه أسطوري أيضاً وسيرمي إسرائيل في البحر! وإنما أوحى إليهم بأنه أضعف من أن يدخل مع إسرائيل في حرب، لتضليل الإسرائيليين وإيهامهم بأن مصر لن تحارب؛ حتى تكون الحرب عند وقوعها مفاجئة، ومحققة لشرط المبادأة بكل أبعاده الاستراتيجية. مع أن هذا كان يعرض السادات لضغط وسخط شعبي كبير. وكانت النتيجة نجاح القادة المصريين في إحداث حالة من العمى الاستراتيجي للإسرائيليين. ولذا فإن حرب أكتوبر لم تكسر موازين القتال فقط على الجبهة، بل كسرت قواعد الحرب النفسية والحرب النفسية المضادة».

حرب أكتوبر والخداع الاستراتيجي

٢٧ أكتوبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

مقال جديد بالأهرام يتحدث عن كيف نجح الجيش المصري بقيادة السادات في إحداث حالة عمى استراتيجي عند إسرائيل في حرب أكتوبر، وكيف أن استقلال مصر وعزتها الوطنية عمادها جيش وطني، ودور الوحدة العربية، وما يجب أن نستفيده من طريقة التفكير المتبعة في حرب اكتوبر .

نص المقال:

«نتحدث اليوم عن ثلاثة دروس جديدة من حرب أكتوبر. ونبدأ بأول تلك الدروس، وهو درس جديد ومتجدد من دروس حرب أكتوبر. وهذا الدرس أتصوره درسا بالغا، وكان له دور حاسم في الحرب. ولولا النجاح فيه لكان كل شيء قد ضاع، بل كانت الحرب نفسها لن تبدأ؛ لأن إسرائيل كانت ستقوم بضربة استباقية تقلب الموازين.

الدرس الخامس: فن الخداع الاستراتيجي

فن الخداع الاستراتيجي يمثل الدرس الخامس من سبعة دروس نركز عليها في قراءتنا لحرب أكتوبر، وهو درس يجب أن يتوقف عنده الكثيرون طويلا، ويجب استعادته دوما؛ وهنا نجد أن تغيير طرق التفكير سر يطل من جديد؛ حيث كانت خطة الخداع الاستراتيجي في حرب أكتوبر غير تقليدية في كثير من جوانبها، وكانت خطة شاملة أدت إلى التفوق المخابراتي على التقدم التسليحي والتكنولوجي الإسرائيلي. واشتملت الخطة على محاور رئيسية:

١. الخداع السياسي

٢. تدابير التضليل

٣. تدابير الحصول على المعلومات السرية عن العدو

٤. تدابير في الجبهة الداخلية

٥. تدابير في نقل المعدات للجبهة

٦. الخدع الميدانية

٧. تدابير تأمين تحركات واستعدادات الجيش

وأريد أن أتوقف هنا عند نموذج من الخداع الاستراتيجي في إطار عمليات التضليل التي نجح فيها الجيش المصري بقيادة السادات؛ فمن المعلوم أن الشائعات تستخدم بوصفها سحبا لتغطية الحقائق. وإذا أمكن للشائعات الوصول إلى تحقيق هذه الوظيفة، تكون قد حققت الكثير، بل ربما تكون خطوة ضرورية وحاسمة على طريق تحقيق النصر؛ لأن تضليل العدو وخداعه طريقة بديهية لابد من توافرها في عقل أية قيادة تريد أن تحسم الصراع لصالحها، فإطلاق الشائعات المنظمة والمحبوكة إذا نجح في تغطية الحقائق لا يؤدي فقط إلى تضليل الخصوم، وإنما يؤدي كذلك إلى تخديرهم.

ومن أهم وظائف الشائعات كأداة في الحرب النفسية (رسم الهالة حول الذات) لإظهارها بمظهر القوة والمنعة والتميز. ومن هذا القبيل ما فعلته إسرائيل عندما عملت على إشاعة ما يسمى بنظرية التفوق الإسرائيلي، وأسطورة الجيش الذي لا يُقهر، وعجز الجندي العربي عن استخدام الأسلحة المتطورة بهدف تثبيط همة مصر والعرب في القتال، وتدعيم الأمر الواقع. ولقد صدقت إسرائيل نفسها هذه الشائعة! بينما لم يصدقها القادة المصريون. ولذا فقد أتت هذه الشائعة بنتائج معاكسة؛ حيث إنها أدت بالمصريين إلى مزيد من الاستعداد والتدبير بدقة لحرب التحرير، بينما جعلت الإسرائيليين يفكرون بطريقة خاطئة، خاصة أن السادات القائد الماكر تصرف بطريقة تُوحي أنه مستسلم لهذه الشائعة، وتصرف على أنه ظاهريا لن يحارب. إنه كسر القاعدة التي تقول إن أفضل وسيلة لمواجهة الشائعات هي خنقها بالحقائق؛ حيث تصرف على أنه مصدق لأسطورة الجيش الذي لا يقهر، في إطار الخداع الاستراتيجي. وقد نجح في ذلك نجاحا مذهلا.

ويكفي للتدليل على هذا أنه في شهر مايو ١٩٧٣م، توصلت الاستخبارات الأمريكية إلى استنتاج بأن العرب بزعامة جمهورية مصر العربية قد يشنون حربا في الخريف، غير أن الثقة المفرطة في صفوف القادة الإسرائيليين منعتهم من تقدير احتمالات الموقف بفاعلية، لا سيما أنه قد اتخذت القيادتان المصرية والسورية مجموعة إجراءات لضمان تحقيق المفاجأة على شتى المستويات، ومن هذه الإجراءات — كما أشرنا في موضع سابق — إيهام الإسرائيليين بأن العرب مصدقون لشائعتهم! ويمكن للقارئ الكريم مراجعة كتابنا (الشائعات وكلام الناس: أسرار التكوين وفنون المواجهة)، الصادر عام ١٩٩٦ عن مكتبة ابن سينا.

الدرس السادس: استقلال مصر وعزتها الوطنية عمادها جيش وطني

عصور العزة والكرامة في تاريخ مصر هي فقط التي كان عمادها جيش وطني، يحمي الشعب ويصون تراب الوطن، وينحاز للإرادة الشعبية. ودوما كان جيش مصر ليس حاميا للأرض فقط، بل كان حاميا للمسيرة الثورية للوطنية المصرية، وكانت حرب أكتوبر توكيدا للعروة الوثقى بين الشعب المصري وجيشه الوطني، الذي حمل أمانة ومسئولية حماية الوطن، والتي حققنا بفضلها الانتصار في معاركنا الكبرى، من دحر العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، إلى هزيمة الهزيمة بنصر أكتوبر المجيد.

الدرس السابع: روح الوحدة العربية

لقد كانت روح الوحدة العربية التي أحاطت بحرب أكتوبر من أهم الدروس التي يجب أن نستعيدها في مواجهة تحديات العصر التي أصبحت أكثر تعقيدا وصعوبة. دور معظم الدول العربية في دعم مصر لا يمكن إنكاره، وتوظيف دول الخليج الفعال لسلاح البترول في المعركة كان أمرا بارزا وفعالا في الضغط على الدول الكبرى والتأثير في المعركة الاقتصادية والسياسية المصاحبة للمعركة العسكرية.

كلمة أخيرة: استعادة روح العصر البطولي

لابد من استعادة روح العصر البطولي الذي عاشته مصر في حرب ٦ أكتوبر ٧٣ ، في طريقتنا العادية في التفكير بقدر استعادتها في تفكيرنا الاستراتيجي. نريد أن نستعيدها في تصرفاتنا، في أفعالنا، وفى شخصيتنا. نريد أن نستعيدها في تقاليد الفداء والتضحية، والعمل في فريق واحد، وتشكيل نظام اجتماعي يقوم على قيم الانضباط الذاتي المستمدة من قيم الجندية المصرية في حرب أكتوبر. وهذا لن يكون إلا بصنع نظام اقتصادي واجتماعي موازي لروح النظام في الجيش المصري، وهذا لن يأتي إلا بالانتقال إلى النظام الصناعي. الصناعة هي عصب النظام الاقتصادي الحديث، والنظام الاقتصادي ينتج نمطا جديدا من الحياة. وفي هذا أيضا سر ضرورة التحول من نمط الاقتصاد الاستهلاكي إلى نمط الاقتصاد الإنتاجي الذي سوف يتغير معه وجه الحياة في مصر إذا توافرت لدينا إرادة هذا النوع من التحول.

إن حرب أكتوبر لم تكن حرب جيوش فقط، بل كانت أيضا حرب لعقل ضد عقل، حرب أفكار وتخطيط لإعادة صناعة التاريخ المصري الحديث. ولهذا فإن حرب أكتوبر يجب أن تكون إحدى المداخل المهمة في تطوير العقل المصري بوصفه نقطة البداية في (مشروع إعادة بناء الإنسان المصري) الذي دعا إليه القائد الأعلى للقوات المسلحة في إطار مشروع التنمية الشاملة لبناء مصر الحديثة».

اعرف نفسك

٣ نوفمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

« (اعرف نفسك) قد يعتبر البعض منا أن هذه النصيحة غريبة، فهل نحن فعلا بعد كل هذه الحياة والخبرة لا نعرف أنفسنا؟ أليس أنفسنا هي الشيء الوحيد الذي يجب أن نكون متأكدين منه في هذا العالم بأسره؟ ألسنا أقرب إلى أنفسنا من أي شيء آخر؟

يرى البعض أن أكثر شيء يعرفه هو نفسه! وأنها أسهل شيء في المعرفة! ويفترض الكثيرون أنهم يعرفون أنفسهم تمامًا بالفعل. بل البعض يتصور أنه إذا لم يكن يعرف نفسه، فيمكنه أن يحقق ذلك في بضع دقائق! ويؤكد آخرون أنها ليست مشكلة كبيرة على أي حال!

وفي رأيي أنهم ربما يخدعون أنفسهم؛ لأن معرفة النفس معرفة حقيقية من أصعب الأمور. وإذا نظرنا إلى هذا الأمر في إطار تطوير العقل العام، سوف نجده بالغ الأهمية؛ لأن من المتفق عليه أنه لا يمكنك تطوير شيء دون أن تعرفه معرفة حقيقية، بل لا يمكنك أن تحمي نفسك في مواجهة العالم دون أن تعرف نفسك وحدودك وقدراتك ونقاط ضعفك. وهنا أتذكر ما قاله تيريون لانيستر الشخصية الخياليّة في رواية جورج مارتين « لعبة العروش Game of Thrones»، قال:

لا تنسى أبدًا ما أنت عليه،

بالتأكيد العالم لن ينسى ذلك

اجعل معرفتك بنفسك نقطة قوتك

وعندئذ لا يمكن أن يكون ذلك نقطة ضعفك

درّع نفسك بذلك، ولن يتم استخدامه أبدا لإيذائك «(ترجمة بتصرف مني).

وقد تنبه القدماء والمحدثون من الفلاسفة والأدباء إلى ذلك، فنجد أن مقولة «اعرف نفسك» حكمة يونانية قديمة مسجلة في معبد أبولو في دلفي حسب رواية الكاتب اليوناني «باوسانياس»، وهي الحكمة التي تبناها سقراط وطاليس وهيراقليطس وغيرهم من الفلاسفة، واستخدمها الشعراء والكتاب والأدباء في أعمالهم الأدبية. وتنسبها بعض التواريخ إلى خيلون الإسبرطي أحد حكماء الإغريق السبعة في القرن السادس قبل الميلاد. وفي الحقيقة لا يوجد يقين تاريخي بشأن مصدرها الحقيقي.

وتذكر الموسوعات وكتب تواريخ الأفكار أن الكاتب المسرحي الإغريقي اسخيلوس (٥٢٥ ق.م – ٤٥٦ ق.م.) الذي تتميز أعماله ببعد وجودي وصوفي، يستخدم مقولة «اعرف نفسك» في مسرحية « بروميثيوس في الأغلال » المستوحاة من أسطورة بروميثيوس، وهو أحد الجبابرة قام زيوس كبير الآلهة بمعاقبته لمنحه النار للبشرية. وفي هذه الأسطرة يحذر أوشينوس بروميثيوس نصف الاله من أنه يجب أن يعرف نفسه وحدودها ويفهم مكانه وترتيبه في هذا العالم.

وتذكر الموسوعات وكتب تواريخ الأفكار أن الشاعر الروماني جوفينال يستشهد بها كثيرا ويؤكد أن هذه الحكمة نزلت من السماء. ولا شك أن سقراط هو أكبر من توسع في شرح وتطبيق هذا المبدأ وكيفية اكتساب المعرفة بأنفسنا. وفي محاورة فايدروس Phaedrus لأفلاطون، استخدم سقراط فكرة المقولة كتفسير لفايدروس يشرح فيه لماذا لا يوجد لديه وقت لمحاولات شرح الأساطير أو موضوعات أخرى يصعب على العقل قبولها. وفي محاورة فيليبوس لأفلاطون، يؤكد سقراط أن الناس يبدون سخفاء حينما يحاولون معرفة وفهم أشياء غامضة قبل أن يعرفوا أنفسهم. ويضيف أفلاطون أن فهم النفس عامل مهم لفهم طبيعة الانسان، لأنه من المنطقي أن تفهم نفسك أولا، وفهمك لها سوف يمكنك من فهم الآخرين.

ويعجبني جدا ما جاء في موسوعة Suda، وهي موسوعة بيزنطية كبيرة تعود إلى القرن العاشر من العالم المتوسطي القديم، مكتوبة باللغة اليونانية، وتحتوي على ٣٠٠٠٠ مقالة، وكثير منها مأخوذ من مصادر قديمة فُقدت منذ ذلك الحين، وغالبًا ما كانت مستمدة من المترجمين المسيحيين في العصور الوسطى. جاء فيها أن هذه المقولة (اعرف نفسك) يتم تطبيقها على الذين يتباهون بأشياء أكبر من حقيقتهم! وابتداء من الثلاثينات في القرن السادس عشر استخدمها الأطباء في إطار ضرورة معرفة جسم الإنسان عن طريق التشريح. فبعد قرون طويلة كانت تستخدم فيه لمعرفة النفس أصبحت تستخدم لمعرفة جسم الإنسان.

وفي العصور الحديثة نجد أن احتفاء الفلاسفة والمفكرين والشعراء لم يخبو، مثل بنيامين فرانكلين، وجان جاك روسو ، وصموئيل كوليردج، ورالف والدو إمرسون، وغيرهم.

وإذا كان هؤلاء الفلاسفة والأدباء يفهمون هذا المبدأ في النطاق الفردي الذي يتعلق بكل شخص، فأنا أميل لفهمها على أن المقصود منها نصيحة موجهة، سواء إلى الفرد أو المؤسسة أو الدولة أو الشعب، أن يعرف كل منهم حدود قدراته على حقيقتها، ويعرف عيوبه ونقاط ضعفه ومميزاته ونقاط قوته دون مبالغة في المدح أو الذم، وأن يعرف ما حدود الأمل الذي يمكن له تحقيقه في ضوء قدراته الحقيقية، ويعرف ما يمكنه أن يفعل وما لا يمكنه أن يفعل. وبعد أن يعرف الممكن والمستحيل في ضوء قدراته الحقيقية، ينظر في: ماذا يجب عليه أن يفعل؟ وما خطة العمل التي يجب أن نسير عليها للوصول إلى أهدافنا؟

هذه أسئلة تجدها في أية استراتيجية لمؤسسة أو دولة ناجحة، ويجب أن تجدها في أجندة أولوياتك لو أردت النجاح؛ فالإستراتيجيات ليست للمؤسسات والدول فقط، بل يجب أن يكون لك استراتيجيتك الشخصية. وعليك أن تضعها بنفسك ولنفسك، وبالمواصفات والمعايير نفسها التي تحكم الاستراتيجيات الكبرى. وفي كل الأحوال لا تنسى أن مبدأ (اعرف نفسك) ركن من أركان تطوير العقل الجمعي العام والعقل الفردي الخاص».

من عرف نفسه فقد عرف ربه!

١٠ نوفمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«من عرف نفسه فقد عرف ربه.. كيف يمكن أن نفهم هذه المقولة الرائعة في ضوء تطوير العقل المصري؟

لنرى أولا كيف كان يفهمها القدماء، بعضهم ينسبها إلى النبي (ص)، والحقيقة أنها ليست بحديث نبوي، ولا أصل لها عن النبي (ص)، ولا عن أحد من الصحابة. وبعض العلماء ينسبونها إلى يحيى بن معاذ الرازي الذي قال عنه الخطيب البغدادي في (المتفق والمفترق): «كان حكيم زمانه، دوّن الناس كلامه، وجمعوا ألفاظه». وتم تأليف كتب وكتيبات فيها، منها: (القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربَّه) للسيوطي. وتوسع في تأويلها المتصوفة، وتسير أغلب التفسيرات الشائعة في طريق فهمها بشكل مباشر، أي إذا عرفت نفسك فإنك تعرف الله! وهذا المعنى ليس قاصرا على التراث الإسلامي، فكثير من التيارات والمفكرين يفهمونها طبقا لهذا المعنى؛ مثلا في عام ١٨٣١م ، كتب إمرسون الفيلسوف الأمريكي قصيدة بعنوان «اعرف نفسك» ، حول موضوع «الله فيك». وكانت القصيدة نشيداً يعبر عن ايمان إمرسون بأن «معرفة نفسك» تعني معرفة الإله الذي شعر إمرسون بوجوده داخل كل شخص. وهكذا يعطي إمرسون معنى معرفة الله ثم يحمل المعنى نفسه معنى إضافي هو أن الله بداخل كل إنسان.

ويفهمها المتصوفة وكثير من غيرهم في التراث الإسلامي طبقا للمعنى الميتافيزيقي الذي يستطيع أن يجده كل منا في الكتب والمراجع والموسوعات، يفهمونها تارة بالمعنى السابق، وتارة أخرى يرون أنه بهذه المعرفة يدرك أنه هو الله! مثلما فعل الحلاج. ويرى إبراهيم بن الحَلَبي الحنفي (٩٥٦هـ) في كتابه (نعمة الذريعة في نصرة الشريعة) أن مَعْنَاهَا «أَن من عرف نَفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، وَمن عرفهَا بالفناء عرفه بِالْبَقَاء، وَمن عرفهَا بِالْعَجزِ عرفه بِالْقُدْرَة. إِلَى آخر مَا تتصف النَّفس مِمَّا هُوَ مَحَال فِي جَانب الْحق». وهذا هو المعنى الأكثر شيوعاً في شروح كتب عقائد أهل السنة، وعلى سبيل المثال أبو المظفر الأسفراييني في كتابه (التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين)، يقول :»من عرف نَفسه بِالْعَجزِ والضعف وَالنَّقْص والقصور عرف أَن لَهُ رَبًّا مَوْصُوفا بالكمال يَصح مِنْهُ جَمِيع الْأَفْعَال فلولاه لم يتم بِالْعَبدِ الْعَاجِز شَيْء من الْوَارِدَات عَلَيْهِ». وفي (شرح العقيدة الطحاوية لسفر الحوالي) يقول :» لو تفكر الإنسان في ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لآمن به وازداد به يقيناً ومعرفة، ولهذا قال من قال من السلف: «اعرف نفسك تعرف ربك»، فإذا عرفت ضعفك عرفت قوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا عرفت جهلك عرفت علم الله سبحانه تعالى، وإذا عرفت ذنوبك عرفت رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بك ولطفه، وأنه لم يهلكك بهذه الذنوب ولم يؤاخذك بها بل تركك لعلك تتوب، وإذا عرفت تقصيرك عرفت كرم الله ومنَه عليك بالنعم والخيرات التي تتابع وتتوالى وأنت في غفلة عنها ولا تدري ولا تحسب لها أي حساب، ولو فقدت واحدة منها لتغيرت حياتك جميعها. إذاً: لو أن الإنسَان عرف نفسه عَلَى الحقيقة فلن يرى في نفسه إلا الضعف والعجز والافتقار، ويعرف أن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الموصوف بكمال الغنى، وكمال العلم، وكمال الحكمة، وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فالتفكر في هذه الأمور، مما يجب علينا جميعاً، لنزداد إيماناً بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ونزداد عبودية له سبحانه في أنفسنا».

ولا تروق لي كل هذه المعاني، ولا أفهم المقصود من هذه الحكمة على أن المقصود من النفس هو «النفس الميتافيزيقية أو الروح»، وهي الطريقة في الفهم التي يفضل بعض شراح الفلسفة ومؤرخي الأفكار والمتصوفة أن يفهموا بها هذه الحكمة، بل أميل إلى فهمها بطريقة أخرى؛ فالله ذاته كحقيقة ميتافيزيقية لا يمكن معرفته لأنه يجاوز كل ما نملك من قدرات معرفية، ولا يزال كل منا يفهم الله على شاكلته الفردية الخاصة به، وفي حدود قدراته المعرفية المقيدة بالزمان والمكان، بينما الله خارج أي مكان وزمان لأنه خالقهما ومتعال عليهما، وهو سبحانه خارج أي تصور. فحقيقة الله لا يمكن معرفتها لأنه سبحانه أكبر وأعلى مما قد نصور أو نتصور. ومن المحال معرفة هويته تعالى. وإذا كان الأمر كذلك فمن الشطط العقلي الظن بأن الإنسان إذا عرف نفسه يدرك أنه هو الله! فما هذا المعنى إلا هذيان عقلي.

كما لا يروق لي المعنى الذي يضع دوما الإنسان في مجال المقارنة مع الله تعالى، حتى ولو كانت هذه المقارنة تؤكد نقاط الْعَجز والضعف وَالنَّقْص والقصور في الإنسان في مقابل قوة الله وقدرته وكماله. فالمقارنة لا تجوز بين غير متماثلين، وبين رتبتين في الوجود مختلفتين. والله ليس بحاجة أن نتملقه سبحانه بأن نؤكد دوما على ضعفنا أمام قدرته، بل نحن الذين نحتاج لمعرفة ضعفنا حتى نعرف حدود قدرتنا ونطورها ونصبح أقوياء، و«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ». والضعف ليس ميزة يمكن أن يسعد بها الإنسان الطبيعي. لكن من أسف كثير من الأقوال في التراث تمتدح الضعفاء! ويمكن أن أقبلها في حالة جبران الخاطر، لكن لا يمكن أن أقبلها في حالة البحث عن المثل الأعلى. وغالبا شاعت تلك الأقوال في إطار صراع الطبقات والصراع السياسي ومحاولة تسكين وتنويم الطبقة الأدنى عن الصعود. للحديث بقية».

من النفس الميتافزيقية إلى النفس العاملة في العالم

١٧ نوفمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

يقدم رؤية للنفس على طريق تحرير العقل الجمعي من أوهامه، ونص المقال:

« لست مقتنعا بالمعاني التي تم تقديمها في التراث لهذه المقولة الرائعة :(من عرف نفسه فقد عرف ربه). وأميل لفهمها بطريقة أخرى تحمل أكثر من معنى عقلاني لها، ومن هذه المعاني التي أطرحها على القارئ الكريم للنقاش حولها: من عرف نفسه فقد عرف قوانين ربه. كيف؟

إن حقيقة الرب لا يمكن أن نعرفها في ذاتها؛ لأنها أكبر من كل ما نملك قدرات معرفية، لكننا يمكن أن نعرف (أعمال الله) التي تتجلى في النفس وفي العالم، وأن هذه الأعمال بقوانين(بقدر). وهنا يمكن أن نقود أنفسنا والعالم طبقا لقوانين الله في الطبيعة. إن النفس يمكن التعامل معها كظاهرة مثل أية ظاهرة كونية لها قوانينها التي تعمل بها؛ فالله لا يخلق شيئا يعمل دون قوانين؛ لأنه خلق كل شيء بقدر.

إن حقيقة النفس التي نحتاج معرفتها فعلا ليست تلك الماهية الغامضة التي يبحث عنها الفلاسفة والمتصوفة كل على طريقته، بل هي النفس العاملة في هذا العالم والتي هي أساس كل تغيير وأساس أي تقدم في العالم. تلك النفس يمكن رصد طبيعتها وقدراتها وحدودها، بالدراسة والتحليل والنقد والوصف، والتي تتجلى في التفكير والوجدان والغرائز والسلوك. ومن يعرف نفسه يستطيع أن يقودها ويوجهها بالوعي الذاتي، ويستطيع أن يعرف نقاط قوته ويعمل على زيادتها، ويعرف نقاط ضعفه ويعمل على معالجتها، وهنا نفهم المعنى العميق لبيت الشعر المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب:

دواؤُك فيكَ وما تبصرُ ... وداؤُك منكَ وما تشعرُ

ومن يعرف نفسه يعرف كيف يديرها ويعرف كيف يتعامل مع الآخرين ومع العالم، ويعرف كيف يدير حياته. وهذا هو المعنى الحقيقي للحرية، فالإرادة الحرة هي التي تدير الذات، أما الشخص الذي لا يعرف نفسه ولا يمتلك وعيا ذاتيا فهو مثل الحيوان الذي تتحكم فيه غرائزه من أي نوع. ويمكن أن نضيف أن الإنسان الذي يعرف عيوبه يمكنه أن يتفهم عيوب الآخرين ونقاط ضعفهم فلا يكون متكبرا متعاليا ولا يكون عيّابا وسريعا في اتهام الناس وقتلهم معنويا. من جانب آخر يرى البعض أن النفس مجمع الموجودات، فالإنسان هو العالم الأصغر الذي ينعكس فيه العالم الأكبر، وهذا هو المعنى في بيت الشعر الشهير:

وتزعمُ أنَّك جرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوَى العالمُ الأكبرُ

ومن وجهة نظري أن هذه مبالغة غير مبنية على علم كامل بالإنسان ولا علم كامل بالكون. وهنا يمكن ألا نقف عند المعنى الحرفي، فالإنسان رتبة في الوجود وجزء منه، ومعرفته لنفسه لا يترتب عليها بالضرورة معرفة العالم. ومن ثم يمكن أن ينضبط المعنى إذا تحول إلى: من يعرف نفسه يستطيع معرفة العالم، بمعنى أنه يمكنه أن يعرف العالم لا أنه قد عرفه بالفعل. وعليه فإن من جهل نفسه لا يمكن أن يعرف العالم. وعلى هذا تكون مهمتنا إذا أردنا السير إلى الأمام أن نعرف طبيعة وحدود قدراتنا (المعرفية، الوجدانية، السلوكية) بوصفنا كائنات إنسانية وبوصفنا مصريين لنا عقل جمعي واحد، مع مراجعة مجموعة المفاهيم والأفكار التي على أساسها نفكر في العالم.

وفي تصوري أن تغيير مفهوم النفس من «النفس الميتافيزيقية الغامضة» إلى « النفس العاملة في العالم» التي لها أبعاد معرفية ووجدانية وسلوكية يمكن رصدها، ويمكن تغييرها، هو أحد أهم آليات تحويل العقل الجمعي المصري من عقل لاهوتي سحري إلى عقل علمي نقدي يستطيع أن يحقق تقدماً حضاريا مثل كل الشعوب شرقا وغربا التي احتلت الآن ركب التقدم الحضاري وامتلكت زمام القوة.

إن تحرير العقل الجمعي المصري من أوهامه، لا يقتصر فقط على تغيير آليات التفكير، بل يشمل أيضا تغيير المفاهيم والأفكار التي على أساسها نفكر في العالم. ويمكن أن نتوسع أكثر، ونقول إن إعادة بناء العقل المصري غير ممكنة بدون معرفة الإنسان المصري لطبيعته وحدود العالم من حوله معرفة حقيقية غير مزيفة، بعيدا عن جلد الذات المرضي، وبعيدا عن التمجيد الزائف المرضي أيضا. وطريق تجاوز هذا التطرف في تقويم أنفسنا هو التدرب على التفكير العقلاني النقدي الذي يسير وفق خطوات محددة في فحص أية ظاهرة طبقا للمنهج العقلي وحده الذي ينحي الجوانب العاطفية والذاتية والتجارب الفردية الشخصية، والعبور من «العقل» إلى «الظاهرة» دون التأثر بآراء الآخرين، ودون اعتبار للآراء المسبقة مهما كان مصدرها، وعدم تجاوز حدود التجربة المتعينة. وإذا ما أصبح لدينا القدرة على التفكير العقلاني النقدي، فإننا نكون مهيأين للإجابة على السؤال المحوري الذي ينتظم إعادة تقويم العقل المصري: ما طبيعة العقل المصري الجمعي؟

إن مقولة (من عرف نفسه فقد عرف ربه) يجب من تخرج من النطاق الفردي إلى النطاق الجمعي، والخروج من الفردي ليس معناه إلغاءه بل معناه البناء عليه؛ لأن الجمعي محصلة تفاعل الأفراد. الفرد هو الأساس، ولا إصلاح جمعي بدون إصلاح فردي.

والنفس التي نقصد إلى معرفتها أشمل من النفس بالمعنى الميتافيزيقي، ومن النفس بالمعنى الغرائزي أو الوجداني، ولا يمكن أن نقول إننا عرفنا أنفسنا دون أن نكون قد عرفنا كيف نفكر؟ وكيف نعتقد؟ وكيف تعمل ملكة الوجدان؟ وكيف ندير الغرائز؟ وكيف نتصرف في سلوكياتنا؟ وبعد المعرفة الدقيقة بأنفسنا والعالم من حولنا يأتي التطوير؛ فلا تطوير بدون معرفة الواقع أولا، والتطوير يجب أن يشمل جوانب خمسة في ثقافتنا ومناهجنا التعليمية، وهي -كما سبق التأكيد مرارا- تطوير العقل النظري، وتطوير العقل الديني، وتحرير ملكة الوجدان، وإصلاح الغرائز، وتطوير العقل العملي».

هل يمكن أن ننقل اللغة العربية نحو الحاضر؟

٢٤ نوفمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«ربما يكون أحد أهم مظاهر طرق التفكير القديمة والمفاهيم اللاهوتية والتصورات السحرية المسيطرة علينا، هو عجزنا الواضح عن تطوير وتنمية لغتنا العربية في أهم ثلاثة محاور، وهي: عمليات الإثراء المعجمي للغة، وعمليات التبسيط النحوي، وتنمية معاجم المصطلحات العلمية الحديثة وتضمينها المعاجم العامة.

عبر العقود الماضية انعقدت آلاف المؤتمرات لتطوير اللغة العربية، لكنها لم تبارح بعد لسان العرب لابن منظور، وألفية ابن مالك، والتعريفات للجرجاني، ومفاتيح العلوم للخوارزمي. واقتصرت تلك الجهود على الوقوف عند حدود الشرح والتبسيط، على طريقة القدماء. أما الدراسات الحديثة التي أجراها مجموعة من علمائنا، وبعض الجهود المعجمية، فإنها لم تتراكم تراكما حقيقيا يتحول فيه (التغير الكمي) إلى (تغير كيفي) يطال استخدام اللغة ومعاجمها وقواعدها.

لقد تجمدت اللغة العربية عند العصور القديمة، وتوقف نموها عند حدد جهود علمائها البارزين القدماء، ولم تتأثر تأثرا حقيقيا بجهود بعض العلماء المحدثين. قارن بين ما يفعله الإنجليز والفرنسيون والصينيون والروس والألمان واليابانيون وغيرهم في قواميسهم المتطورة يوما بعد يوم، وما نفعله نحن من جمود عند القديم بقواميسه الرائعة في عصورها القديمة لكنها غير مواكبة لعصرنا بكل مفاهيمه ومنجزاته المعرفية.

إن اللغة ليست مقدسة ولا إلهية، بل هي كائن حي ينمو ويتطور، أو هكذا يجب أن تكون. انظر كيف تجاوز الإنجليز لغة شكسبير ذلك الأديب العظيم والاستثنائي، ونحن لا نزال نتمسك بطريقة تعبير عتيقة ورثناها من القدماء! إن اللغة هي صورة الفكر، وجمود لغتنا بسببنا نحن، وليس بسبب طبيعة لغتنا ذاتها. وهذا يعكس جمود فكرنا، كما يعكس حجم خطأ أفكارنا عن اللغة.

لقد نجح الإنجليز مثلا في عمليات التبسيط النحوي عصرا بعد عصر، كما نجحوا في القيام بأكبر عمليات الإثراء المعجمي يوما بعد يوم، ولذلك تجد لغتهم حافظت على تفوقها واستمراريتها في السيادة كلغة عالمية مشتركة بين دول وثقافات العالم. أما نحن فلا نزال نتغنى بأمجاد الماضي البعيد ونزهو بلغتنا في عصور ازدهارها في الماضي. وأتصور أن القدماء لو عادوا فلن يكونوا سعداء بنا لأننا مجدناهم بالكلام الإنشائي والتقريظ المقدس، ولم نمجدهم بتطوير عملهم. إننا مثل الابن الذي ورث من أبيه ميراثا فلم ينميه، وتركه كما هو يبني عليه الأسوار معتقدا أنه يحافظ عليه. وبعد زمن ظل هذا الميراث كما هو، لكن قيمته قلت وتراجعت بفعل التضخم. وما يحدث من الأبناء مع الميراث يحدث شيء مثله من الأبناء مع التراث. ويبدو أن عمليات التضخم بالمعنى الاقتصادي مع الأموال تطال أيضا عمليات الفكر بمختلف أنواعها.

إن طريقة تفكيرنا في التراث بأنواعه، ومنه التراث اللغوي، هي إحدى أبرز أسباب عدم تطوير لغتنا.

إذن الأمر يتعلق بطرق التفكير، نحن نفكر بطريقة خطأ في التعامل مع التراث، ونفكر بطريقة خطأ في التعامل مع اللغة. والآخرون يفكرون بطريقة صحيحة. والدليل على هذا هو النتائج على أرض الواقع، أين وصلت لغتنا في العالم، بل أين وصل وضع لغتنا بيننا؟!

إن العلاقة بين اللغة والفكر علاقة ديالكتيكية، فكل منهما يؤثر في الآخر سلبا وإيجابا. لكن التغيير يجب أن تكون بدايته من تغيير طريقة التفكير في طبيعة اللغة، فلابد أن ندرك أن اللغة كائن حي يتطور وينمو، وهي ليست مقدسة في عالم الأبدية، كما أنها ليست مثلا من المثل التي يقوم عليها (عالم المثل) بالمعنى الأفلاطوني. إن أي كائن حي لو ظل حبيسا في درع حديدي لن ينمو، بينما الواقع يتغير حوله في الخارج خارج ذلك الدرع.

ولقد تطور العالم من حولنا تطورا متسارعا، وشهد طفرات معرفية وثورات علمية الواحدة تلو الأخرى، وصاحب ذلك تطور مذهل في اللغات التي تتحدث بها الحضارات التي مرت بهذا التطور، بل نشأت لغات مع مطلع العصور الحديثة لم تكون موجودة أصلا، وتحولت من لهجات إلى لغات، مثل لغات دول أوربا: الألمانية والفرنسية والانجليزية وغيرها. والتطور لم يكن فقط من هذه اللهجات إلى لغات، بل التطور نفسه لحق هذه اللغات الناشئة نفسها بشكل متسارع ومطرد.

أما الأغلبية عندنا من علماء اللغة الأعرق في التاريخ، فلايزالون يحققون ويجترون العلوم والمتون والشروح القديمة، ويقفون عند حدود مفرداتها ومصطلحاتها العلمية دون أي إثراء حقيقي لها، ودون مواكبة العلوم الحديثة، بل دون مواكبة للمفردات المستجدة التي تعبر عن مفاهيم جديدة لم تكن موجودة عند القدماء، ودون توظيف المناهج الحديثة توظيفا شاملا ينقل قواعد هذه اللغة نقلة حقيقية نحو الحاضر».

هل يمكن تطوير العقل بدون تطوير اللغة؟

الأحد ١ ديسمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«يقول مارتن هيدجر في (رسالة في النزعة الإنسانية) : «إن اللغة قبل كل شيء هي مأوى الوجود حيث يقيم الإنسان. المفكرون والشعراء هم أولئك الذين يسهرون ويحرسون هذا المأوى». هذا ما قاله الفيلسوف الألماني الكبير. فماذا يقصد به؟

يمكن فهم عبارته بأكثر من طريقة، والمعنى الذي يطرح نفسه علينا في هذا السياق بشيء من التبسيط في الشرح، هو أن أي كائن له مسكن، وأن مسكن الوجود الذي يقيم به الإنسان هو اللغة. ومن المعروف أن وجود الكائن لا يمكن أن ينمو دون نمو واتساع المسكن، ولنضرب مثلا على ذلك بالقوقعة الجيرية أو الصدفة التي يعيش بداخلها كائن الحلزون . فالصدفة الجيريّة هي مأوى ومسكن الحلزون، ولا يمكن للحلزون أن ينمو بدون نمو الصدفة التي تحيط به. والسؤال هنا إذا كانت اللغة كما يقول هيدجر هي مأوى أو مسكن الوجود، فكيف لوجودنا الفكري أن ينمو دون نمو اللغة؟ وكيف لمفاهيمنا أن تتطور دون تطور اللغة؟ والإجابة أن الوجود الإنساني لا يمكن أن ينمو ويتطور دون نمو وتطور اللغة.

إذن فإن جمودنا الوجودي يرجع إلى جمود اللغة في التحليل الهيدجري. أو من وجهة نظرنا نحن أن عدم تطور اللغة هو سبب جوهري من أسباب جمودنا الوجودي في الفكر والعلوم والثقافة بعامة. وأستطيع أن أقول أيضا أن جمود اللغة أحد أهم أسباب عجزنا عن تطوير الخطاب الديني؛ فكيف يمكنك التعبير عن فكر ديني جديد بمفردات وأساليب تعبير قديمة؟ وكيف يمكن لخطاب ديني أن ينمو وهو يعيش في قوقعة لا تنمو؟ هذا أيضا ما يجعلني أؤكد مجددا أن المؤسسات التقليدية لا يمكن أن تطور الخطاب الديني لأنها تستخدم اللغة القديمة بكل مفاهيمها، وتعيش في الصدفة من داخلها، وهذه الصدفة نفسها لا تنمو!

إن تطوير اللغة العربية هو أحد أهم أركان الدخول في عصر جديد، ويجب أن تطال عمليات تغيير طرق التفكير تطوير اللغة؛ لأن اللغة لها دور في نمو المفاهيم والتصورات ومن ثم السلوك. ومنهجية فهم اللغة تنعكس على الفكر مثلما ينعكس الفكر على منهجية فهم اللغة. هنا نعود مرة أخرى للعلاقة الديالكتيكية المتبادلة بين اللغة والفكر. والدليل على هذا ما تجده عند أهل الحَرف الذين يفهمون الكلام فهما حرفيا جامدا طبقا لمعانيه القديمة على عكس أهل المعاني الذين يفهمون الكلام وفق مقاصده وسياقه. وأتصور أن أحد أهم أسباب التطرف والتشدد هو طريقة فهم اللغة عند التيار المتشدد الذي يقف عند حدود الحرف وظاهر اللغة كما تشكلت قديما وعدم الالتفات إلى السياق التاريخي والاجتماعي للغة، فضلا عن عدم الالتفات إلى المقاصد. وهم علاوة على ذلك يعيشون في بيت قديم هو اللغة القديمة، ومن الطبيعي إذن أن يفكروا ويستدلوا طبقا لمنطقها. ولِمَ نذهب بعيدا في التحليل النظري؛ فيكفيك أن تقرأ لهم أو تراقب طريقتهم في الحديث، فسوف تعرف على الفور أنهم يعيشون خارج التاريخ المعاصر، ولم يدركوا من الحداثة إلا قشورها، بل سوف تشعر بالاغتراب تجاه كلامهم وتجاه نمط تفكيرهم، وسوف توقن أن جسور الحوار منقطعة لأنها مع أناس من عالم آخر. ولذلك سوف تجدهم يكفرون أي شخص يعيش في عالم اللغة المخالفة لهم!

وعلى فكرة ليست هذه مشكلة المتطرفين فقط، بل هي مشكلة طائفة من النخبة الفكرية في التيار الذي يدعي الحداثة، فهم يدعون الحداثة ضد المتطرفين، لكنهم يمارسون طرق التفكير القديمة نفسها، إنهم القفاز نفسه ولكنه مقلوبا!

إن المشكلة الأكبر عند هذه النخبة أنها تتعالى على اللغة الجارية كلية؛ فالنخبة عظيمة وفي مكان عال وتجلس على مقاعد التكبر والغطرسة، وعلى الجموع أن تصعد إليها! بل وعلى العلوم المتجددة التي تكتشف وقائع كل يوم أن تقف عند حدود اللغة القديمة! وعلى الفكر أن يتجمد في حدود جدران مسكن تم تشييده في عصور غير عصورنا. إننا لا نريد هدم المسكن القديم لكن نريد بناء مسكن جديد. إننا نفتخر بالمسكن القديم، لكننا لا نستطيع العيش فيه. إننا لا نستطيع أن نتنفس هواء تنفسه غيرنا، ولا نستطيع أن نعيش في زمن مضى. نستفيد من الماضي ونوظف عناصره طبقا لزماننا. إن القرآن الكريم مصدق ومهيمن على الكتب السماوية قبله لكنه ليس نسخة منها وليس مكررا لها. (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ). وهذه العملية نفسها هي التي ندعو إليها في العلاقة مع القديم في اللغة بخاصة والتراث بعامة. نعتز بالماضي كجزء منا لكننا لا نريد أن نكون نسخة منه، بل نصنع نسختنا الجديدة.

إننا لو ظللنا نعيش في النسخة القديمة من اللغة العربية بخاصة أو من التراث بعامة، وهذا هو حالنا الآن، فسوف يستمر توقف نمونا الفكري في الوجود. وإذا كان وجودنا لابد أن ينمو ويتطور فلابد من تطوير الصدفة التي تحتويه، فبدون نمو الصدفة لن ينمو الكائن الحي بداخلها. واللغة هي هذه الصدفة؛ إنها مسكن الوجود الوجود الإنساني الذي تحدث عنه مارتن هيدجر».

متى نصنع نسختنا الجديدة من اللغة العربية؟

الأحد ٨ ديسمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«سوف تستمر مشكلة اللغة العربية قائمة طالما يتملكنا الإصرار على الاستمرار في المسارات القديمة للتطوير، لا سيما أن نفرا منا يجرنا متقعرا إلى اللغة القديمة بوصفها المثل الأعلى والنموذج الأمثل، بينما الحياة تتطور، والثقافات تتفاعل، والعلوم تزداد تقدما وتتحرك إلى المستقبل في شكل طفرات، والمعارف والوقائع والحقائق الجديدة تزيد لحظة بعد لحظة، وشبابنا أصبحوا منفتحين على العالم بلغاته المختلفة التي تزيد مفرداتها يوما بعد يوم، ونحن لا نزال نتمسك بعدم إدخال مفردات جديدة على لغتنا وكأنها لغة مقدسة وقفت عند قاموس الشعر الجاهلي! أو حتى عند القاموس العربي كما تشكل في العصر العباسي، وكأن الدنيا وقف نموها بعد ذلك!

الملفت أن القرآن الكريم نفسه لم يقف عند حدود مفردات اللغة العربية السابقة عليه، حيث تجد عددا من المفردات غير العربية في القرآن الكريم. ولا يتعارض هذا مع كونه نزل بلسان عربي مبين؛ لأن الأساليب المركبة عربية، والعبرة بأساليب التركيب وليس بمفردة من المفردات جاءت في سياقها. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يوجد في القرآن كلام مركب على أساليب غير أساليب اللغة العربية. لكن يوجد خلاف بينهم في وجود مفردات غير عربية في منشئها.

ويوجد تيار منفتح من القدماء أمثال الإمام المفسر ابن عطية الذي أكد وجود بعض الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم، ووافقه بعض المفسرين وعلماء القرآن، وأيده جلال الدين السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن». ومن أدلتهم: ما يوجد فعلا من ألفاظ أعجمية، مثل: إستبرق، سند، القسطاس، أباريق، زنجبيل، فردوس، سجيل، عدن، طاغوت، فرعون، مشكاة، ماعون، وغير ذلك من الكلمات. وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم بُعث للناس كافة، فلا يمتنع وجود أكثر من لغة في القرآن، بل هو أبلغ في الإعجاز. وأكدوا أن هذه الألفاظ أجنبية في الأصل، لكنها عربية بالتعريب والاستعمال. ووجود بعض الألفاظ غير العربية في أصلها لا يُخرج القرآن عن كونه عربيًا؛ لأن المعيار هو أساليب التركيب، والألفاظ الأجنبية في منشأها قليلة بالقياس إلى الألفاظ ذات الأصل العربي، والعبرة للأكثر.

والرأي عندي أن المفردات باستخدامها وتوظيفها، وليست بمنشئها. وعندما تستخدم مفردات جديدة في لغة تم استعارتها من لغة أخرى لتعبر عن معان جديدة، فإنها تصير جزءا من اللغة الجديدة. ولو فهم علماء لغتنا في العصور الحديثة هذا الرأي، لكانت اللغة العربية تطورت واشتملت على كل المصطلحات العلمية المستجدة في العلوم وفي الحياة بشكل عام، لكنهم أرادوا الرد دائما لمفردات قديمة، فانعزلت اللغة في مسار مغلق، بينما سار علماء الطبيعة والطب والهندسة والعلوم الإنسانية في مسار لغوي مفتوح ومختلف.

وحتى في ميدان المقدس، فإن علماءنا القدماء أنفسهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، لأنهم يعلمون الفرق الحقيقي بين ما هو مقدس وما هو بشري، ولا يتوسعون في رقعة المقدس خارج الحدود التي حددها المقدس نفسه. ولذلك طوروا طريقة كتابة القرآن، ولم يجدوا في ذلك خروجا على القدسية التي يتمتع بها الكتاب الكريم، لأن كلام الله مقدس لكن طريقة كتابة المصحف بشرية. والدليل على ذلك أن طريقة كتابة الكلمات في القرآن الكريم نفسه كانت في البداية بلا تنقيط ولا تشكيل ثم تم استخدام النقاط لاحقا مع أبي الأسود الدّؤَلي، أوّل من نقّط المصحف الشريف، ثم اشتهر التنقيط في عصر عبد الملك بن مروان الذي أمر بتنقيط القرآن الكريم، وقام بذلك: يحيى بن يعمر العدواني، ونصر بن عاصم الليثي، فوضعا النقاط على الحروف المتشابهة من نقطة إلى ثلاثة. كما وضع العلماء نظام الأجزاء والأحزاب والأربًاع تيسيرا للقراءة. مما يدل على أن اللغة وسيلة، وأنها لا تتطور فقط في مفرداتها، بل تتطور أيضا في طريقة كتابتها، وأن التيسير مطلب جوهري.

إن تطوير اللغة ليس معناه الخروج من الهوية ولا من اللسان العربي المبين. واللغة العربية القديمة نفسها كانت منفتحة ومتطورة، ولذلك كانت لغة عالمية استوعبت العلوم في العصر العباسي؛ لأن علماء العربية آنذاك كانوا على وعي كامل بضرورة الانفتاح والنمو وإثراء المعجم العربي، ولم يجدوا في ذلك أي خروج على الهوية، ولم يزايدوا على هويتنا مزايدة فجة مثلما نفعل. وقد أدرك ذلك ابن دريد في كتابه الشهير «الجمهرة»، وخصص في هذا الكتاب باباً تحت عنوان: (باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة)، كما سجل الجوهري في الصحاح هذه الظاهرة، فقال: (تعريب الاسم الأعجمي: أن تتفوه به العرب على منهاجها). وهذا أيضا ما أكده اللغوي الكبير إمام النحاة سيبويه في القرن الثاني للهجرة فقال: (كل ما أرادوا أن يعربوه، ألحقوه ببناء كلامهم، كما يُلحقون الحروف بالحروف العربية) (الكتاب:٣٠٤/٤). ومن المعروف أنه سُمي بالكتاب لأن سيبويه تركه دون عنوان.

فهل نحن قادرون على صنع كتابنا المعاصر من العربية مثلما صنع سيبويه ورفاقه كتابهم المعاصر لزمنهم؟ «.

فشل كل المحاولات المعاصرة لتطوير اللغة العربية

الأحد ١٥ ديسمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

«لو ظل المختصون في اللغة يعتقدون في قدسية اللغة القديمة وأنها أزلية أبدية، فلن ينمو العقل العام ولن يتطور الفكر في مجتمعاتنا. لذا يجب أن يشق الفكر طريقه لفتح مسارات جديدة لتطوير اللغة. إن اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر وليست غاية، والاعتقاد بأنها غاية وأن على الفكر أن يتكيف معها هو مثل من يعتقد أن الإنسان يجب أن يحيا في مساكن القدماء!

إن الفكر هو الذي يجب أن يحكم اللغة، ويقدم المفاهيم والتصورات الجديدة، واللغة عليها أن تتطور لتواكب المفاهيم والتصورات. وعجز المحدثين ليس فقط عن تطوير اللغة، بل عجز أيضا عن مواكبة اللغة القديمة، فعلى الرغم من دراسة النحو في مراحل التعليم قبل الجامعي، فإن الكثيرين يقعون في أخطاء جسيمة حتى في أبسط القواعد.

هل هذا بسبب عجز منا؟ أم أننا نملك تصورات وأفكار خاطئة عن طبيعة اللغة ووظيفتها؟ أم لأننا أساسا خارج التاريخ المعاصر في العلم والثقافة؟ أم أن السبب هو حالة الانهزام الحضاري التي نعيشها؟ أم أن اللغة في شكلها القديم لم تتطور قواعدها ومفرداتها حتى تواجب طرق الحديث في العالم المعاصر؟ أم لأن المؤلفين والمدرسين –في المجمل الأعم– لا يملكون المهارات لإيصال اللغة للناس؟ أم أن السبب في ذلك هو أننا نصر على تدريس كل شيء، فتكون النتيجة لا شيء؟!

أتصور أنها كل تلك الأسباب مجتمعة. وهذا التصور تكوّن عندي نتيجة تجربة طويلة مع اللغة وقواعدها من سن مبكرة، عندما كنت أجد نفسي مضطرا للرجوع إلى المؤلفات القديمة في النحو حتى أجد حلا لبعض معضلات اللغة، مثل (شرح ألفية ابن مالك) لابن عقيل، و(قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام الأنصاري، و(التبيان في إعراب القرآن) للعكبري وغيرها. وكنت أرجع لها ولغيرها حتى يمكنني فهم بعض آيات القرآن والتي لم يكن يشفي فضولي ويقنع عقلي ما أجد لها من تفسير عند العلماء الأحياء أو علماء التفسير القدماء في كتب التفسير الشائعة، مثل الطبري أو القرطبي أو ابن كثير أو النيسابوري أو الشوكاني أو الألوسي. كما كنت أتجول بين المكتبات شراء واستعارة للمؤلفات الحديثة لكي أجد الطريقة المثلى لإتقان اللغة، مثل النحو الوظيفي لعبد العليم ابراهيم والنحو الوافي لعباس حسن وغيرهما.

ماذا وجدت في هذه التجربة؟ وجدت أن هذه المؤلفات الحديثة تسير في المسارات القديمة نفسها، هي فقط تحاول أن تقدم لك القديم في ثوب جديد، مثل ذلك الذي ألبس شيخا ملابس الشباب! فهل هذه الملابس سوف تحوله إلى شاب يفكر بطريقة حديثة ويعبر بلغة حديثة!

لقد زاد من انعزال اللغة العربية أن الشعوب في حياتها العملية شكلت لغة أخري موازية منقطعة عن اللغة العربية. مما يدل على فشل كل المحاولات من أجل تطوير اللغة العربية في العصر الحديث، على الرغم من انعقاد المجامع، وكثافة المؤتمرات، واللجان المنبثقة عن اللجان، وعشرات الآلاف من البحوث والكتب والرسائل العلمية! وظل اللسان متعثرا والقلم متخبطا على الرغم من أكداس المقررات النحوية والعربية المقررة على الطلاب في التعليم! بينما من الأجدى تدريس الحد الأدنى الذي يستقيم به اللسان وتصح معه طريقة الكتابة، والتركيز على التدريب الكثير عليه والممارسة المثابرة حتى الوصول إلى مرحلة الإتقان.

والغريب أن الإصرار يزيد على الرغم من أن النتائج السلبية في أرض الواقع تكشف عن الفشل! وهذه طريقة في التفكير لا تسيطر علينا في تجديد اللغة فقط، بل في كثير من المشروعات الفكرية والاجتماعية. المنطق يقول إنك لو سرت في طريق ووجدته مسدودا، عليك أن تبحث من جديد عن طريق آخر. لكن هذا المنطق البدهي غائب، فهم يسيرون بالمنهج نفسه فيما يظنونه تجديدا، ولكنهم يفشلون في الواقع، فهل يحاولون تغيير منطقهم ويدركوا فشلهم؟ لا . إذن فماذا يفعلون؟ يصرون على الطرق القديمة نفسها ويتحسرون متعالين على الواقع والمجتمع!

إن العقل الذي يعبر عن نفسه بلغة قديمة سوف يظل عقلا قديما، فاللغة هي صورة الفكر، ولا يمكن أن يظهر الفكر الجديد في صورة قديمة. ولذا تقف اللغة القديمة كأحد الأسوار التي تمنع تطور فكرنا تطورا طبيعيا. إن القدماء في العصر العباسي كانت لديهم الشجاعة على تطوير اللغة العربية ومواكبة تطور العلوم وتطور الحياة، ولذا صنعوا نسختهم من اللغة العربية التي تتجاوز النسخة الجاهلية، بل التي تتجاوز النسخة السابقة عليهم بقرن. ولا يستطيع أحد أن يزعم أن مفردات وأساليب العربية لم تتطور في القرون الأولى.

إن كل ما سلف لا ينتقص من بعض الجهود المعاصرة بإطلاق، لكنها جهود مفرقة، وتنتهج مناهج شتى، سواء في المعاجم أو قواعد اللغة. وبالفعل هناك اجتهادات تستحق النظر، لكنها ظهرت وخفتت لسيطرة الفكر التقليدي، وبسبب حالة العجز والكسل العامة. وفي كل الأحوال لم تتراكم وتتفاعل معا لتحدث تغيرا كيفيا في أرض الواقع.

فما الحل؟ وهل يمكن القيام بمبادرة جديدة تقوم على وسائل عملية قابلة للتنفيذ؟ لعل الإجابة تكون في المقال المقبل».

مبادرة جامعة القاهرة لتطوير اللغة العربية

الأحد ٢٢ ديسمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن الشخص العادي في الحياة اليومية الذي يعجز عن صنع مجده الخاص، يلوذ بمجد آبائه، أو مجد أقاربه، أو مجد ناديه في كرة القدم، وكأنه مجده الشخصي الذي صنعه بنفسه! ولا يدري أهل الحَرف ودعاة استنساخ الماضي أنهم مثل هذا الشخص! ولذا تجد أهل الحَرف لا يعرفون سوى حفظ القديم وترديد متونه وأشعاره، ولا يستطيعون صنع متنهم الجديد ولا نسج شعرهم الجديد. إنهم يقيمون مسابقات في الحفظ، ولم نسمع عنهم أنهم أقاموا مسابقات في الفهم! وهم منفصلون عن الواقع الحقيقي، ويعيشون في واقع آخر مصطنع في خيالهم، ويردون كل تقدم في العالم إلى أنفسهم أو إلى أجدادهم؛ فهم السبب وهم الأسبق، لكنهم لا يواجهون أنفسهم بواقعهم المرير في خريطة الحضارة المعاصرة، ولا يستطيعون ذلك أصلا بسبب انفصالهم عن الواقع الحقيقي.

إن تقدم اللغة العربية وتطورها – من وجهة نظري– مرهون بتجاوز اللغة القديمة. وإذا كنا ندعو إلى «تجاوز» اللغة القديمة، فهذا «التجاوز» ليس نفيًا مطلقًا، بل هو ارتقاء بهذا اللغة إلى مستوى أعلى، وهو إيمان بها وتقدير لها، لكنه الإيمان الذي يدرك سنة الله في التطور، والتقدير الذي يعي ضرورة النمو وعدم التجمد، بعيدا عن الغوغاء المتقعرين الذين يحسبون كل دعوة تجديد مروقا وانسلاخا! وهم يجهلون أن عظمة أجدادنا جاءت من قدرتهم على الانفتاح والتجديد باقتدار ويسر. ولذا إذا أردنا أن نسير سيرا حقيقيا نحو التقدم، فعلينا أن نفعل مثلهم في تجاوز القديم والانفتاح الحضاري والارتقاء إلى مستوى أعلى في اللغة والحضارة. وليس الارتقاء خروجا من الهوية. إن الحفاظ على الهوية لا يعني بالضرورة أن تظل جامدا على حالك في التاريخ مثلما يغالط أهل الحَرف ودعاة استنساخ الماضي. إن محمد عليه الصلاة والسلام على ملة إبراهيم، لكن القرآن الكريم ليس استنساخا لصحف إبراهيم. أرجو أن يكون المعنى الذي أريد إيصاله قد وصل. وهنا أؤكد مرة أخرى أن «التجاوز» لا يعني النفي المطلق، وأن الإلغاء ليس معناه المحو التام. ولا شك أن هذا يحتاج لتفصيل وتوضيح أكثر، سوف أقدمه في طرح مستقل، لكن لا أريد الاستطراد هنا أكثر حتى لا تضيع القضية الأساسية وهي تطوير اللغة العربية.

لقد فشلت كل المحاولات المعاصرة لتطوير اللغة العربية وتمكينها من السيادة على أرضها، لأسباب كثيرة، من أهمها كما سبق القول في مقال سابق : العجز العام الذي نعاني منه عن التطوير والتقدم في كل المجالات، وغياب المعنى الحقيقي للتجديد، والانفصال عن الواقع، وعدم الاستفادة من دروس نشوء وتطور لغات أخرى أصبحت لها السيادة، والخروج من التاريخ المعاصر في العلوم والثقافة، حتى وصلنا إلى حالة من الانهزام الحضاري، وأصبحنا كالمريض الذي لا يعلم مرضه، وإن علمه فهو يصر على الوصفات القديمة!

ومن أسباب فشلنا أيضا في تطوير اللغة أن أهل الحرف يعتقدون في قدسية اللغة القديمة وأنها أزلية أبدية، ويتصورون أن اللغة غاية وليست وسيلة! ومنها – كما سبق القول – أننا نملك تصورات وأفكار خاطئة عن طبيعة اللغة ووظيفتها، وظلت اللغة عندنا في شكلها القديم غير قادرة على مواكبة طرق الكتابة والحديث في العالم المعاصر، وفشلنا في تخريج مؤلفين ومدرسين يملكون المهارات لإيصال اللغة للناس. ولا نزال نصر على تدريس كل شيء وحشو عقول الطلاب بالمعلومات والقواعد، فتكون النتيجة لا شيء؟!

وفي ضوء المعنى الديالكتيكي لمفهوم التطور والعلاقة التفاعلية بين الماضي والحاضر؛ فإننا في جامعة القاهرة ندرس الآن إطلاق مبادرة لتطوير اللغة العربية، لاسيما أن هناك مبادرة قوية آتية من الإمارات الشقيقة أطلقتها مؤسسة محمد بن راشد للمعرفة تحت عنوان «بالعربي» ٢٠١٣، وجامعتنا مشاركة فيها بقوة. ولا شك أن ظهور مبادرات عديدة سوف يقوي بعضها بعضا نحو الوصول إلى الهدف المنشود، وأهم المسارات التي سوف تعمل مبادرتنا عليها :

١. صناعة معجم عربي معاصر شامل مرن يقبل النمو المستمر.

٢. وضع معالم لاستراتيجية محددة المنهج لعمليات التعريب.

٣. وضع معالم لاستراتيجية محددة المنهج لعمليات إدخال مفردات اللهجات المحلية والعامية إلى العربية.

٤. العكوف على النظر في تبسيط قواعد اللغة وحذف مالا يلزم منها، وأحد معايير ذلك عدم تأثيره على المعنى، فكل ما لا يؤثر على المعنى لا داعي له، تخليصا للغة من تعقيدات لا لزوم لها.

٥. تغيير طريقة تعلم العربية من حفظ القواعد إلى الممارسة، فالأقدمون كانوا يمارسون اللغة، والعرب الأوائل لم يكن يعرفون قواعد النحو!

٦. دراسة تبسيط طريقة كتابة اللغة العربية.

٧. تدريس الحد الأدنى الذي يستقيم معه اللسان وطريقة الكتابة. والقاعدة التي يجب أن تحكم هذا (قليل من القواعد كثير من التدريب).

٨. دراسة الأسباب النفسية لانصراف الأغلبية عن محاولة إتقان العربية، وكيفية علاجها.

٩. وضع امتحان دولي لقياس إجادة الحد المقبول اللغة العربية للتواصل، على غرار امتحان TOEFL و IELTS في اللغة الإنجليزية، وامتحان HSK في اللغة الصينية، وامتحان DELF في اللغة الفرنسية. والنظر في شرط اجتيازه للالتحاق بالدراسات العليا، أو التعيين في الوظائف التي تقتضي هذا؟ وطبعا يجب قياس المستوى المعقول في حدود المعايير الدولية، والاستفادة من معايير تلك الامتحانات الدولية، وليس قياس قدرات سيبويه!

١٠. الاستفادة من التجارب الدولية في تعليم اللغة الأم في التعليم قبل الجامعي لتلك البلدان، في تصميم المناهج وطرق التعليم. وأتصور أن الإطار الأوربي الموحد مفيد جدا في هذا الشأن.

١١. التدريب المستمر للمعلمين على الطرق الحديثة في التدريس.

١٢. وضع اختبار معرفي موحد للمعلمين لابد من اجتيازه قبل العمل بتدريس اللغة العربية.

١٣. وضع منهج معياري لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

ونرجو أن نتمكن قريبا من السير قدما نحو هذا التطوير، وأن تتضافر الأقسام العلمية لتحقيق هذا الهدف الضروري كخطوة على الطريق نحو نهضة فكرية حقيقية تقوم على قطيعة إبستمولوجية مع كل طرق التفكير التقليدية، وترك المسارات المسدودة التي تسير فيها محاولات التقليد أو التجديد).

لماذا تفشل دعوات التسامح؟

الأحد ٢٩ ديسمبر ٢٠١٩ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

عادة يقوم الداعون إلى التسامح بذكر كل الأقوال المأثورة عن فوائد التسامح في الأديان، ويحثون الناس على الغفران وقبول الآخر، ويذكرون عيوب الثأر وكراهية الآخرين. وفي كل مرة يفشلون في إقناع المتعصبين والمتطرفين. وما ذلك إلا لأنهم لم يجهزوا التربة ويمهدوا الأرض لنثر بذور التسامح، ولم يقوموا بتوفير الشروط القبلية لتأثير ثقافة قبول الآخر على الرغم من اختلافه عنا.

والرأي عندي أنه ليس هناك بد من توفير الشروط القبلية للتسامح، مثلما لابد قبل البناء من أن نحفر الأرض ونعالج التربة ونضع الأساس. وإذا كنت لا تستطيع أن تزرع في أرض صخرية، فلن تستطيع أن تنشر التسامح بين عقول مغلقة صلبة. وإذا كنت لا تستطيع أن تبني قصورًا على الرمال فلن تستطيع أن تقيم عوالم الحب في نفوس مارقة مثل بحر الرمال تبتلع وتقتل أي دليل عقلي يقف على سطحها. إنك لن تستطيع أن تُري الكفيف الذي لا يبصر أي شيء ماثل أمامه مهما أبرزته واضحًا للعيان.

ومن أهم الشروط القبلية للتسامح، إصلاح طريقة التفكير أولا؛ لأن العقول التي ضللتها الأهواء عن البرهان والحجة العقلية، لا يمكن أن تستقيم دون إصلاح ماكينة تفكيرها قبل أي شيء. إن طريقة التفكير هي المنهج، وكما قلت في موضع آخر:» المنهج عبارة عن الإجراءات التي تتبعها في تفكيرك وخطوات الاستدلال التي تسير عليها، ففي عملية الاستدلال توجد خطوات، حيث تسلمك الخطوة الأولى للخطوة التالية، فمن الممكن أن تعرض الفكرة الإيجابية على شخص يفكر بطريقة سليمة، وتعرض الفكرة الإيجابية نفسها في الوقت ذاته على إرهابي من داعش، فهل سوف يتعامل الاثنان بالطريقة العقلية نفسها مع الفكرة ذاتها؟ بطبيعة الحال لا. فالفكرة الإيجابية التي يستقبلها صاحب طريقة التفكير السليمة سوف تجعله يصل إلى نتائج وأفكار تنمية، وتطور، ومشاركة اجتماعية، وروح الفريق الواحد...إلخ. بينما الفكرة الإيجابية التي يستقبلها العقل المتطرف صاحب طريقة التفكير الخاطئة، سوف يترجمها هذا العقل المتطرف بطريقة باطلة، وسوف يصل لنتائج مختلفة وأفكار دموية، وحرق، وقتل، أي أنه من الممكن أن تكون محطة البث واحدة وقوية وإيجابية ويبقى الخطر كامنًا في كنه عقل من يستقبل هذه الأفكار، وطريقة تفكيره إزاءها! فطريقة استقبال العقل للأفكار وترجمتها بالاستنتاج والاستدلال، هي المحك وهي الفاصل في النتائج وطبيعتها».

إذن لابد – أولًا– من فتح العقول المغلقة وتغيير طريقة المتعصبين في التفكير. فلن تستطيع أن تجعل إنسانا متسامحا وهو يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة ويجزم بأن الآخرين على باطل، ولن تستطيع بث أفكار عقل مفتوح في عقل مغلق. فالعقل المغلق ليس مجهزا لاستقبالها مثلما أن التلفاز الأبيض والأسود ليس مجهزا لاستقبال محطات البث الفضائي HD .

وثانيا– من الشروط القبلية للتسامح تغيير رؤية العالم World View؛ فلن تستطيع أن تجعل طائفة متسامحة وهي تعتقد أن الكون يقوم على لون واحد وليس ألوانا متعددة، ولن تستطيع أن تقنع إنسانًا بالتسامح وهو يعتقد أن الله يريد أن يكون الناس كلهم نسخًا من بعضهم البعض، أو أن مشيئة الله تعالى تريد الناس متطابقين وليسوا مختلفين. ولن تستطيع أن تؤثر في إنسان يعتقد أنه مفضل عند الله على العالمين لمجرد نطقه وتلفظه ببعض الكلمات، أو لمجرد ولادته ضمن طائفة معينة.

إذن لابد من العمل على تغيير رؤية العالم وتجديد فهم العقائد في الأديان. ولن تتغير رؤيةٍ العالم إلا إذا جعلنا الكون نفسه كتابا مقدسا واحدًا مشتركا بين الأديان المختلفة كتبها المقدسة، فإذا كانت الكتب المكتوبة المقدسة متنوعة بين الأديان، فإن هناك كتابا مقدسا لا يجب أن يختلف عليه اثنان، وهو الكون نفسه بوصفه صناعة إلهية. وأعمال الله البادية في كتابه الكوني تكشف عن التنوع والتعددية إلى ما لا نهاية بقدر اتساع الألوهية إلى ما لا نهاية. ولا توجد في هذا الكتاب الكوني مخلوقات أو ظواهر تشكل نسخا واحدة متطابقة بدرجة مائة في المائة؛ مما يدل على أن التنوع والاختلاف والتعددية هي الأساس في الكون. ولا شك أن قوانين الله في الطبيعة تقوم على التنوع لكن لا يوجد قانون يعرِض قانونا آخر، كلها تعمل في منظومة نسقية خلاقة.. (وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) سورة النحل: آية ٨.

وهذه الرؤية الفلسفية للأعمال الإلهية في كتابه الكوني المقدس، إذا ما تمكنت من العقول فإنها سوف تفتح الأبواب واسعة ليس فقط على مستوى رؤية العالم، بل على مستوى تجديد فهم العقائد في الأديان؛ وهو الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى فتح العقول والنفوس والضمائر أمام فكرة تقبل الآخر مهما كان مختلفا عني وعنك، ويؤدي إلى اتساع سبل السلام أمام التسامح مع التعددية والتنوع الثقافي والحضاري والديني والعرقي، وغلق الطرق أمام الكراهية لمجرد الاختلاف، وسد المنعطفات أمام العنف لمجرد المنافسة.

إن التسامح قيمة عليا يجب أن تتوحد الإنسانية حولها تأكيدًا لقوانين الله في الطبيعة القائمة على التعددية والتنوع، سواء في الجمادات أو النباتات أو الكائنات الحية أو الألوان أو الأعراق أو الثقافات، إلخ. وبقدر ما في الكون من تعددية يكون اتساع عظمة الخلق الإلهي، وبقدر ما في الوجود من تنويعات لا حصر لها يكون تنوع إبداع الألوهية اللامتناهي.

وبالمثل – ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وما خارجهما – يمكن التأكيد أنه بقدر ما يكون في المجتمع من انفتاح وتنوع واختلاف تكون قوة المجتمع وتكون قوة الدولة ويكون ارتقاء ورقي الشعب، بشرط قدرة المجتمع على «إدارة الاختلاف» في منظومة نسقية خلاقة).